أسبوعية

أسبوعية مستقلّة تحترم القارئ

تتوقف عن الصدور

العدد 428 - من الثلاثاء 29 أكتوبر إلى الاثنين 4 نوفمبر 2024 - الموقع الالكتروني www.acharaa.com- البريد الالكتروني : maghrebstreet@gmail.com

أسبوعية «الشارع المغاربي» تتوقف عن الصدور

بقلم : كوثر زنطور

تنتهي اليوم تجربة صحيفة «الشارع المغاربي» بعد 9 سنوات من العمل الشاقّ والدؤوب، حصيلتُه نجاح في رهان المهنيّة والمصداقيّة والاستقلاليّة، وبسقف عالٍ من حريّة التعبير مع صرامة في احترام أخلاقيات المهنة. تمكّنت «الشارع المغاربي» من التموقع بسرعة في المشهد الإعلامي التونسي، سواء بمحملها الإلكتروني أو بنسختها الورقيّة (قبل حجبها جرّاء أزمة فيروس كوفيد الخانقة واتخاذ قرار بتعويضها بنسخة رقميّة)، لتصبح واحدة من أهمّ المؤسّسات الإعلاميّة على مستوى صحافة الجودة والالتزام بضوابط المهنة وأخلاقيّاتها.

مقابل هذا النجاح المهني، اصطدمت الصحيفة بصعوبة متناهية لتحقيق رهان الاستمراريّة بسبب عدم توفّر شروطها الموضوعيّة، وأهمّها السند الإشهاري الذي حُرمت منه الصحيفة باستثناء تعاملها على امتداد رحلتها مع مؤسّستيْن فقط. مردّ ذلك توجّس أصحاب المؤسّسات الكبرى من الزجّ بمصالحهم في صحيفة توسَمُ بـ»المعارضة»، وتُعرف بأنّها مغايرة للسائد في كافّة أقسامها السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة. وبذلك استحال تأمين الاستقرار المادي للفريق العامل من صحفيين وتقنيين ومتعاونين خارجيين. هؤلاء هم أبطال هذه التجربة الفريدة ورفاق مسيرة نضال حقيقية وصمود مهني وشخصي في مواجهة صعوبات شتّى. كان سلاحهم حبّ المهنة وإيمانهم بأنه لا بديل عن صحافة الجودة.

ليس من السهل إذن إعلان نهاية هذه التجربة بكلّ ما ستخلّفه في وجداني من أثر منهك، سيكون من الصعب تخطّيه بعد سنوات طويلة من البذل والجهد، بما يفوق طاقة التحمّل على المستوى الذهني والأدبي والمادي. ومن المهمّ التذكير بأنّ «الشارع المغاربي» حافظت على امتداد تسع سنوات على تأمين أجور كلّ العاملين بها. فقد فرضت الصعوبات الجمّة التي مرّت بها المؤسّسة توجيه الأولويّة المطلقة إلى سداد الأجور في مواعيدها، إلى حين بلوغ المؤسّسة مرحلة الانهيار والعجز عن الإيفاء بالتزاماتها الماديّة.

كانت الأشهر الأخيرة صعبة على الفريق وقاسية اجتماعيّا ومدمّرة نفسيّا. فرغم الانقطاع الكلّي للدعم، حاولنا في مرحلة أولى تأمين رواتب كاملة، ثمّ اضطررنا لتقديمها على شكل أقساط لا تكاد تفي بالحدّ الأدنى لمتطلّبات أصحابها، ومن ثمّ سعينا ولو بشكل متقطّع إلى تقديم بعض الجرعات. وعلى الرغم من هذه الأوضاع حافظ كلّ العاملين في الصحيفة، تقريبا، على مستوى عالٍ من المهنيّة والمثابرة والصبر والانضباط والاحترام والتفهّم. ولا يسعني في هذا السياق إلا أن أشكر زملائي على جهودهم الجبّارة وعلى تفانيهم البطولي. كما اعتذر لهم من القلب، من باب المسؤولية والزمالة والصداقة، عن كلّ ما كابدوه من متاعب ماديّة ونفسيّة.

ومن المهم توضيح بعض النقاط:

حقوق الصحفيّين لن تكون محلّ توظيف أو مزايدات من أيّ جهة كانت.

هناك اتفاق مبدئي مع السيد المنصف السلامي الشريك في المؤسّسة والمساهم الرئيسي في تأمين استقرار «الشارع المغاربي» خلال أشدّ أزماتها، دون تدخّل في خطّها التحريري منذ تأسيسها حتى اليوم، على إيجاد تسوية وحلّ نهائي للإشكاليّات العالقة.

علينا، من باب النزاهة هنا، التنويه بدور السيد المنصف السلامي في ما منحه من دعم لا مشروط للصحيفة إلى غاية سنة 2023 حين قرّر لأسباب شخصيّة إيقاف الدعم في عدّة مجالات إعلامية ورياضية وسياسية سبق أن استفادت من دعمه كوطني مشهود له بسخائه وعطائه.

وضعيّة الصحيفة بكلّ تفاصيلها معلومة لدى كافّة العاملين بها خلال أزماتها الماليّة المتعاقبة. وقد عقدت الكثير من الاجتماعات مع تطوّر الأزمة للكشف بكلّ شفافيّة عمّا تواجهه من عجز مالي يستحيل تخطّيه في ظلّ حرمانها من الإعلانات. ومع ذلك فإنّ ثلاثة صحفيّين فقط ارتؤوا التوجّه إلى القضاء، وذلك من ضمن عشرات الصحفيّين والكتّاب والمتعاونين الذين واصل بعضهم البذل دون تقاضي مليم واحد منذ أشهر بل ومنذ سنوات. وإلى جانب العقلة التحفظيّة على تجهيزات الصحيفة التي فرضها عدد من المتقاضين، تُجابه المؤسّسة أيضا دعوى قضائيّة رفعها صاحب مقرّ الصحيفة لعدم خلاص معلوم الكراء طيلة أشهر، ممّا يستحيل معه الاستمرار.

يمنعني احترامي لنفسي طبعًا من الخوض في تفاصيلَ تخصّ وضعيّتي الشخصيّة، ولو أنّها قد تكون أخطر من الوضعيّة الصعبة لعدد من الزملاء، لا فقط على مستوى توفير الحدّ الأدنى من مقوّمات العيش الكريم، وإنّما أيضا بسبب ديوني المتراكمة التي تحوّلت إلى عبء ثقيل جدا، ديون يعود جُلّها إلى تسديد أجور العاملين، مع أنّني لم أتقاض أجرًا من الصحيفة، ولو مرّة واحدة، منذ تأسيسها إلى اليوم. بل واعتدت على تخصيص جلّ مداخيلي الأخرى (من عملي في الإذاعة) لتأمين المصاريف الطارئة للصحيفة.

جريدة «الشارع المغاربي» لم تحصل مطلقا منذ تأسيسها حتى اليوم على نصيبها من الإشهار العمومي، وهو للتذكير حقّ حُرمت منه دون وجه حقّ لأسباب يبدو أنها تتعلّق بخطّها التحريري المستقل.

واقع الصحافة المكتوبة في تونس اليوم يبدو للأسف الشديد الأكثر بؤسًا في تاريخ البلاد. وهذا القطاع الذي صُنّف قطاعا منكوبا منذ أزمة انتشار فيروس كوفيد لم يشهد أيّة إصلاحات على خلاف برامج التأهيل والدعم التي شهدتها جلّ دول العالم في هذا النطاق. وحتى مسألة تنظيم توزيع الإشهار العمومي فقد بقيت مجرّد حبر على ورق، فضلا عن الإخلال بالتعهّدات الرسميّة لإيجاد حلول لمعضلة التغطية الاجتماعية التي تمثل تقريبا إشكالا عاما لجلّ المؤسسات الإعلامية، ممّا ألحق أضرارًا عميقة بحقوق العاملين بها.

تتوقّف اليوم إذن النسخة الرقميّة (PDF) لصحيفة «الشارع المغاربي»، مع الإبقاء ربّما إلى حين على الموقع الإلكتروني. هذه الظروف القاهرة التي ما انفكّت تغتال الصحيفة تلو الأخرى تستوجب معالجة شاملة لقطاع الصحافة المكتوبة ولوضع المهنة الصحفيّة المهدّدة بالاندثار. وهو ما يتطلّب حشد كلّ الطاقات لبلورة حلول جماعيّة تكون منطلقا لخوض معركة البقاء. الأمر الذي يستحيل تحقيقه دون تحمّل الدولة لمسؤوليتها في عمليّة إنقاذ هذا القطاع على غرار ما جرى في مختلف الدول الديمقراطيّة التي تربط حيويّة نظامها الديمقراطي بتأمين الديمومة لصحافتها المكتوبة...

قد تكون هذه آخر أسطر نخطّها في «الشارع المغاربي»... لذلك أقول شكرًا من القلب لكلّ من آمنوا بهذا المشروع وبهذه المغامرة التي جمعت جيلا من المخضرمين ومن أهمّ كتاب النخبة ممّن سخّروا طاقاتهم بلا مقابل طيلة سنوات لتقديم إضافات مميّزة، فكانوا خير سند لجيل من الشباب سيمثل بلا شك مستقبل المهنة.

مودّتي لقرّائنا الأوفياء، رغم هذا الظرف الحزين، ولعلّ القادم أفضل...

غزة من الموت إلى الموت

بقلم : د. رفيق بوجدارية

بعد عام من 7 أكتوبر تاريخ إندلاع طوفان الأقصى، يواجه سكان القطاع الفلسطيني و عددهم يفوق المليونين و نصف ظروفا صحية وإنسانية تتجاوز الكارثة. فالوضع غير آمن في غزة و خاصة في شمالها .فالفلسطيني بقي له الخيار بين الموت في المكوث أو الموت في النزوح و ذلك أمام صمت العالم و عجز النظام الرسمي العربي، عجز يرتقي أحيانا إلى شبهة المشاركة... هذا الخيار لا مفر منه سيما بعد أن تخلى عنهم القريب قبل البعيد و خذلهم الشقيق قبل الصديق...و لم يبقى لهم إلا أنفسهم و مقاومتهم التي أرعبت عدوهم. فهم يقاومون آلته الرهيبة بأشلائهم و بشهدائهم و أطفالهم و يقاومونه بصبرهم على الجوع و العطش و بصبرهم على الموت .كل ذلك بثبات أربك قادة الكيان الصهيوني و حير داعميه في عالم بدأ يستفيق على حقيقة هذا الكيان الصهيوني النازي المجرم و على فضاعة توحشه و خطورة نتائجها حاضرا و مستقبلا ..فحسب دراسة أممية، فقد أعاد الغزو الإسرائيلي غزة إلى أكثر من قرن إلى الوراء و سيستغرق بناءها مجددا إلى أكثر من قرن من الزمن...هذا يقودنا مباشرة إلى القول بأن ما تعيشه غزة منذ سنة ليس كارثة إنسانية بل إبادة جماعية. فالكارثة الإنسانية تأتي بعد جائحة طبيعية أو ما يشابهها من حوادث كبيرة لكن الذي يحصل في غزة هو إبادة جماعية بكل تفاصيلها و عناوينها القانونية تقوم بها قوة عسكرية ضخمة ضد مدنيين عزل أغلبهم أطفالا و نساءا يقومون بقتلهم و تجويعهم و تهجيرهم لإفراغ شمال القطاع من ساكنته . فأكثر من خمس و أربعين ألف شهيد أغلبهم أطفال بمعدل مائة و خمسة عشر شهيد يوميا و مثلهم من المفقودين و ضعفهم من المرضى المزمنين ضحايا فقدان الخدمات الصحية. عائلات بأكملها مسحت من السجل المدني. و في كل يوم يصاب قرابة ثلاثمائة شخص بجراح و هو ما يوازي شخصا من كل ثلاثة و عشرين من سكان القطاع. واحد و ثلاثون شخصا يعدون يوميا في عداد المفقودين فيما يجبر خمسة آلاف و خمسمائة مواطن على النزوح من منازلهم. غزة أصبحت حسب اليونيسيف المقبرة الأولى للأطفال في العالم . الظروف الصحية تتجاوز الكارثة بفعل إنتشار الأمراض و الأوبئة و تفشي الجوع و قلة المياه الصالحة للشرب و فقدان الدواء و

الانهيار الكامل للقطاع الصحي بعد تدمير 84% من المرافق الصحية .فعادت للقطاع أمراض حوصرت في الماضي و تم التغلب عليها مثل الكوليرا و الحصبة و إلتهاب الكبد الفيروسي و شلل الأطفال و الأوبئة الجلدية و الأمراض التنفسية. و فقدت الحوامل في غزة كل متابعة طبية لحملهن. الجوع في غزة يقتل أيضا، أكثر من مليون و نصف غزاوي يعانون من الجوع نتيجة الحصار و نتيجة تدمير الحقول و يقع تحت تهديد الجوع أيضا حتى من إتخذ من مراكز الأنروا ملجآ له . حال الأطفال يزيد مأساة كل يوم ، تفيد اليونيسيف بأن أكثر من ست مائة ألف طفل محاصرون في رفح لا يحصلون على ما يكفيهم من الماء و الغذاء و كذلك هم محرومون من التلاقيح. فيما تم التشخيص الطبي لأزيد من سبعين ألف حالة من سوء التغذية و هم في حاجة ملحة للعلاج. في نفس الوقت أدى منع المساعدات الغذائية إلى تكديسها في العريش المصرية و فسادها و التفريط فيها ...فيما ينتظر أزيد من عشرة آلاف جريح الإجلاء الطبي عبر رفح و لم يأتي إلى الآن.. قلة المياه تسببت في تفشي الأمراض المعدية فنسبة الإسهال الحاد تضاعفت بخمس و عشرين مرة و يتكفل البعوض و الحشرات بالبقية..ظروف الحياة في المخيمات لا تطاق بل هي مروعة: مرحاض لأكثر من أربعة آلاف نسمة و تكدس النفايات و الحشرات و نفاذ الوقود و أزمة المياه و الحرارة الكبرى داخل الخيام صيفا و البرد المميت شتاءا و فقدان الغذاء فإسرائيل لا تسمح إلا بدخول الدقيق بكميات قليلة و تمنع دخول الدهنيات و البروتينات..

تم التدمير الكلي أو الجزئي لأكثر من 65% من المباني و تكدس أربعون مليون طن من الحطام. العدو أتلف ما فوق الأرض و ما تحتها ليتم تجريف كل البنية التحتية من قنوات ماء و مجاري و كابل إتصال.

لقد دمر العدو كل شيء ليفرغ غزة من الحياة لكنه فشل في أن يفرغ الفلسطيني الأعزل من إرادته في العيش فوق أرضه و هو يقاوم بجسد نحيف و لكن بإرادة قوية رغم خذلان الجار و الأخ و صمت» العالم الحر « الذي يصدع آذاننا عندما يرى ذلك صالحا ...و تتعاظم المأساة نتيجة تكثيف القصف و الحصار في شمال غزة في إطار خطة أصبحت معلومة (خطة الجنرالات) و هي تطهير عرقي لإجبار أهالي الشمال على مغادرته. و في نفس الوقت يتواصل حظر دخول وسائل الإعلام العالمية إلى القطاع لتغطية حجم الدمار بعد سنة من القتل و القصف و التنكيل . أمام هذه المأساة الإنسانية و أمام حجم الجريمة الصهيونية و أمام كل شواهد الإبادة الجماعية لا يزال ظمير العالم عاجز عن إيقاف هذه الجرائم . بل يتواصل الصلف الصهيوني إلى إعاقة تدخل وكالات الإغاثة الأممية و تقليص أنشطتها . فتقلص عدد الوجبات المطبوخة التي تقدمها الأنروا إلى الثلث و تم تطعيم ربع الأطفال الذين يتوجب تطعيمهم. و حذر الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيراش من إقتراب نظام الدعم الإنساني الذي تقدمه مختلف الوكالات التابعة للأمم المتحدة من الانهيار التام نتيجة تكثيف الجيش الصهيوني من غاراته و عدوانه على مدنيين عزل. فلا وجود لمكان آمن في غزة فالولدان يردمون أحياءا تحت الأنقاض و الأطفال يقصفون و هم في طابور ينتظرون تسلم لمجة بسيطة..المتحدثة بإسم الأنروا صرحت بأن الوضع مرعب في القطاع . فإلى أي مدى سيواصل الكيان الصهيوني تدميره لغزة و إلى أي مدى سيواصل دوسه للقانون الدولي و الإنساني متجاوزا كل القيم الإنسانية. ربما نجد الإجابة في الماهية التاريخية لوجود هذا الكيان أو ربما نجدها في بعض التفاسير التوراتية التي تجعل من الإبادة عبادة ! كما أتى في التوراة(سفر يشوع) : «دمر أماكنهم المقدسة وأقتل رجالهم و نساءهم و أطفالهم و مواشيهم». وهو الأساس النظري الذي يفسر كل ما قامت به العصابات الصهيونية من مجازر أثناء وجودها بفلسطين و كذلك تلك النزعة الإجرامية التي تشرعن للصهيونية «العلمانية» أعمال القتل و الإبادة و التهجير و التطهير العرقي بأن تتخذ من الأساطير التوراتية مرجعية لها تحيي بها ما فعله الأسلاف لتسقطه على الواقع الراهن و تطبقه .... يسهل هذا الفهم عندما تحكم إسرائيل اليوم حكومة اليمين الديني المتطرف الصهيوني التي تتعامل مع التوراة بوصفها مرجعا تاريخيا يجب تكرار أحداثه التاريخية .

فيكتشف العالم الوجه الحقيقي للصهيونية و يسقط القناع عن قبح النظام العالمي الحالي و ينزع اللثام عن وجه قريب غادر « إرتقى» بصمته من المريب إلى المتواطئ و يبرز عن نظام عربي رسمي مرتهن سياسيا و فاقد لأدنى درجات الشهامة أخلاقيا و في قطيعة مع جماهيره شعبيا.

محاذير الدبلوماسيّة التونسيّة حيال الجزائر والمغرب

معز زيّود

من المنتظر أن يتحوّل الرئيس قيس سعيّد، قبل نهاية هذا الأسبوع، إلى الجزائر لمواكبة احتفالات الذكرى السبعين لاندلاع الثورة الجزائريّة، وذلك تلبية لدعوة رسميّة من الرئيس الجزائري عبد المجيد تبّون. كما ستكون هذه الزيارة مناسبة للمضيّ في الإعداد للقمّة الثلاثيّة التي ستحتضنها العاصمة الليبيّة طرابلس قبل نهاية العام الجاري. مواعيد وتحرّكات متلاحقة لا تؤشّر لصحوة مغاربيّة بقدر ما تُثَبّت حالة شبه الموت السريري للاتحاد المغاربي، وتكشف خصوصا صعوبة التزام تونس بدبلوماسيّة الحياد الإيجابي التي عُرفت بها زمنا طويلا...

تزايد الحديث، خلال شهر سبتمبر الماضي، عن بداية عودة العلاقات التونسيّة المغربيّة إلى مسارها الطبيعي بعد مكالمة هاتفيّة جمعت وزيري خارجيّة البلدين ثمّ لقائهما المباشر بمناسبة القمّة الصينيّة الإفريقيّة المنتظمة ببكين. وكانت العلاقات الثنائيّة قد شهدت حالة شبه قطيعة طيلة عامين، على إثر استقبال الرئيس قيس سعيّد زعيم جبهة البوليساريو إبراهيم غالي للمشاركة في «مؤتمر طوكيو الدولي للتنمية في إفريقيا» (التيكاد 8) الذي احتضنته تونس أواخر سبتمبر 2022. وهو ما جعل المغرب تنسحب من المؤتمر وتسحب سفيرها وتُعطي الضوء الأخضر لوسائل إعلامها لشنّ حملة مستعرة ضدّ تونس، جرّاء ما اعتبرته «عملا خطيرا وغير مسبوق يجرح بشدّة مشاعر الشعب المغربي»، باعتبار أنّ المملكة المغربيّة تعدّ الصحراء «الغربيّة» جزءا لا يتجزّأ من وحدتها الترابيّة. ومن جهتها أكّدت الخارجيّة التونسيّة آنذاك تجديد حرص تونس على «علاقاتها الوديّة والأخويّة والتاريخيّة العريقة التي تجمعها بالشعب المغربي» وأنّها «حافظت على حيادها التامّ في قضيّة الصحراء التزاما بالشرعية الدوليّة، وهو موقف ثابت لن يتغيّر إلى أن تجد الأطراف المعنيّة حلا سلميّا يرتضيه الجميع».

لا يسعنا المجالُ هنا للخوض في تفاصيل قضيّة الصحراء والخلاف المغربي الجزائري العميق بشأنها، وخاصّة بالمقترح المغربي لمنحها حكما ذاتيّا موسّعًا أو بتمسّك جبهة البوليساريو مدعومة من الجزائر بتنظيم استفتاء لتقرير المصير. فالأهمّ بالنسبة إلينا في هذا المضمار يخصّ الخطوة الدبلوماسيّة التي أحدثت شرخا في العلاقات التونسيّة المغربيّة جرّاء الاستقبال الرسمي للزعيم الصحراوي في تونس. فأيّ قراءة موضوعيّة للأحداث تُقرّ بوجود ضغوط جزائريّة على تونس في هذا الملف أدّت إلى استقبال إبراهيم غالي، وذلك بصرف النظر عن الترّهات والأكاذيب الرديئة التي ما انفكّت تُروّجها بعض الأبواق الجزائريّة والمغربيّة بشأن تحوّل تونس إلى مجرّد تابع للجزائر. فاستقلال القرار الوطني لأيّ دولة لا يعني بتاتا غياب ضغوط دبلوماسيّة تُمارسها هذه الدولة على تلك في مرحلة معيّنة عبر استغلال أزماتها الداخليّة أو ظروفها السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الأمنيّة أو غيرها، غير أنّ التبعيّة والوصاية تتبلور وتستحكم عند المضيّ في الخضوع لتلك الضغوط. وهنا يكمن الإشكال الماثل أمامنا فيما يتعلّق بكيفيّة تعاطي تونس السيادي مع الخلافات الجزائريّة المغربيّة.

عبد المجيد تبون

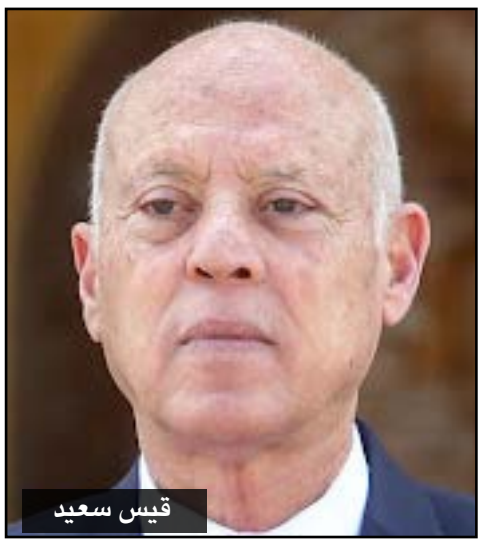
قيس سعيد

محمد السادس

عودة الرشد!

الجدير بالذكر أنّ رئاسة الجمهوريّة التونسيّة تجاهلت مؤخرًا، سواء على موقعها الإلكتروني أو صفحتها الرسميّة بشبكة فيسبوك، البرقيّة التي وجّهها إبراهيم غالي (حاملا لصفة «رئيس الجمهوريّة الصحراويّة وأمين عام جبهة البوليساريو») إلى الرئيس قيس سعيّد لتهنئته بإعادة انتخابه. ولا ريب طبعًا في أنّه تجاهل مقصود ومحسوب سياسيّا ودبلوماسيّا جاء ليقطع ولو ضمنيّا ورمزيّا مع مسبّبات الخلاف السابق بين تونس والمغرب وليُعزّز جهود عودة الدفء لعلاقات البلدين واستئناف التعاون بينهما، ممّا يبقى شأنا ثنائيّا يخصّهما ولا علاقة له بالجزائر أو بغيرها. وهي القاعدة نفسها التي تنطبق أيضا على العلاقات التونسيّة الجزائريّة الوثيقة التي لا شأن للمملكة المغربيّة بها مطلقا. في هذا النطاق تكمن إذن المعادلة الدقيقة التي ينبغي أن تسلكها تونس برئاستها وخارجيّتها ومختلف مؤسّساتها ذات الصلة إزاء علاقاتها بالبلدين المغاربيّين. وهو ما كان يُعبّر عنه بسياسة «الحياد الإيجابي» لتونس إزاء هذه القضيّة الشائكة منذ اندلاعها أواسط سبعينات القرن الماضي. وقد أتاحت سياسة الحياد لتونس الاضطلاع على امتداد عقود بدور الوسيط بين سائر الدول المغاربيّة، ولا سيما الجزائر والمغرب. وهذا تحديدا ما عبّر عنه أستاذ القانون الدستوري والعلوم السياسية المغربي رشيد لزرق بقوله منذ أيّام إنّ «تونس كان لها دائما دور محوري، وكانت هي دينامو الدول المغاربية، حيث كان موقعها وحيادها الإيجابي يمكّنها بلعب عدة أدوار».

يعلم القاصي والداني طبعًا أنّ تونس تشهد، خلال الفترة الراهنة، وضعًا لا تُحسد عليه على كافّة الأصعدة. ولا ريب في أنّ قضيّة الصحراء تُشكّل وجعَ رأس وحرجًا كبيرا بالنسبة إلى السلطات التونسيّة التي تُدرك أهميّة الجار الجزائري سياسيّا واقتصاديّا وأمنيّا وحتّى اجتماعيّا. ومع ذلك ينبغي وضع النقاط على الحروف، فالتعاون لا يعني الخضوع. فأن تعتبر المغرب والجزائر أنّ قضيّة الصحراء تُشكّل خطّا أحمر لكلّ منهما لاعتبارات مبدئيّة أو مصلحيّة، فهذا شأن يهمّهما قبل كلّ شيء ولا يخصّ تونس في حال كان سيرتدّ على مصالحها وعلاقاتها بأحدهما. ومن مصلحة تونس العليا إذن تجنّب الخوض فيه وتفادي مساندة أحدهما على حساب الآخر، أي على حساب مصالحها هي نفسها.

الصيد في الماء العكر

من هنا تتراءى أمامنا ضرورة التزام السلطات التونسيّة الحذر الشديد على مستوى خطابها السياسي حيال البلدين. ومثال ذلك أنّ تصريح وزير الخارجيّة التونسي محمد علي النفطي بعد لقائه الأسبوع الماضي بالرئيس الجزائري أثار بلبلة وظّفها الإعلام المغربي في ترويج ادّعاءات حول تبعيّة تونس السياسيّة للجزائر. فقد قال الوزير النفطي حرفيّا في فيديو بثته وكالة الأنباء الجزائريّة وتداولته مختلف وسائل الإعلام الجزائريّة: «استفدت أيّما استفادة من توجيهات فخامة الرئيس عبد المجيد تبون في كلّ ما يتعلّق بالحفاظ على هذه العلاقات التاريخيّة وأيضا ما يتطلّع إليه بالنسبة إلى مستقبل البلدين الشقيقين... واستمعت بكلّ انتباه لما وجّهني إليه بخصوص المدّ التضامني بين بلدينا الذي طالما ميّز علاقات تونس والجزائر». وقد تصيّدت الصحافة المغربيّة عبارة «استفدت من توجيهات الرئيس تبون»، باعتبار أنّ أيّ وزير لا يأخذ توجيهات مهما كان نوعها إلا من رئيس حكومة بلاده ورئيس الجمهوريّة وليس من رئيس دولة أخرى. وهي مطبّات دبلوماسيّة شائكة كان من اليسير تجنّبها تفاديا لتأويلات في غير محلّها.

مثل هذا الصيد في الماء العكر وتصيّد زلّات اللسان، إن وُجدت أصلا، بات بمثابة تقليد تحاول وسائل الإعلام المغربيّة والجزائريّة توظيفه حيال مواقف تونس من بلديهما. وفي سبيل ذلك لا تتورّع عن اختلاق الأكاذيب والشائعات ودقّ الأسافين المسمومة، على غرار ادّعاء إحدى الصحف الإلكترونيّة الجزائريّة بأنّ السلطات التونسيّة تستعدّ لفرض تأشيرة سفر على المغاربة الراغبين في زيارة تونس، بدعوى أنّ هذا الإجراء يهدف إلى منع اختراق عملاء جهاز «الموساد» ممّن باتوا يحملون جوازات سفر مغربيّة بعد تطبيع المغرب علاقاتها مع الكيان الصهيوني.

اسطوانة مشروخة

من جانب آخر، فإنّ السلطات المغربيّة التي لم تستشر أحدًا من دول الجوار قبل إعلان قرارها بتطبيع علاقاتها مع الكيان الصهيوني، ولم تستفت شعبها الرافض للتعامل مع ذلك الكيان الإرهابي، ولم تتراجع قيد أنملة رغم هول الإبادة الجماعيّة التي تمارسها سلطات الاحتلال ضدّ الشعب الفلسطيني في غزّة، فإنّ انتقاداتها للقمّة الثلاثيّة بين كلّ من تونس والجزائر وليبيا مردودة عليها. ومع ذلك يبقى أن تلتزم مثل هذه الاجتماعات باحترام سائر الدول المغاربيّة وتفادي توظيف بعضها ضدّ البعض الآخر. وعليها في المقابل أن تُركّز على الدفاع عن مصالحها وتطوير تعاونها الاقتصادي، في ظلّ حالة الشلل التي تنخر الاتحاد المغاربي...

والمؤسف كذلك أنّ الصحافة الصفراء المستشرية سواء في الجزائر أو المغرب، بحكم افتقادها للحدّ الأدنى من حريّة التعبير، كثيرا ما غرقت في التشويه والتهويل على غرار اجترارها المتكرّر لعلكة أنّ «تونس تحت الوصاية الجزائريّة» أو أنّها باتت مجرّد «ولاية جزائريّة» أو أنها «الأخت الصغرى»... وهو ما سبق أن تحامق في ترديده سياسي مقرّب من السلطات الجزائريّة. وطبعًا فإنّنا اخترنا هنا بعناية توصيف كلّ من يتفوّه بمثل تلك التفاهات بـ«الحمقى» لأنّهم يسقطون بكلّ صفاقة ووضاعة في تجاهل تاريخ تونس العظيم، ويسعوْن إلى دسّ السمّ في الدسم قصد تسميم العلاقات الأخوية التي تجمع الشعوب المغاربيّة. فالتونسيّون وإن استحكمت عليهم اليوم صعوبة الحياة بمناحيها المختلفة، فإنّهم لا يقبلون المساومة بكرامتهم ويرتدّون ولو بعد حين ضدّ كلّ من يحاول إخضاعهم واستلاب قرارهم. وهو ما يجب أن يضعه كافّة أصحاب الأمر في هذا البلد وذاك نصب أعينهم...

العدالة الانتقالية في تونس :

مسار منقوص أم أداة لتصفية حسابات سياسية ؟

بقلم : منصف سلطاني أستاذ وباحث في التاريخ المعاصر

شهدت مختلف مدن البلاد التونسية في أواخر سنة 2010 وبداية سنة 2011 إضطرابات سياسية بسبب تدهور الوضع الاجتماعي والاقتصادي. وأدّت هذه الأحداث يوم 14 جانفي إلى سقوط نظام الرئيس السابق زين العابدين بن علي من السلطة.

تولى الوزير الأول محمد الغنوشي بعد ذلك السلطة مؤقتا لسد الفراغ السياسي، غير أنه لم يمكث طويلا بسبب سوء تأويل إحدى فصول دستور غرة جوان 1959، فالدستور ينص في حالة الفراغ الدائم على تولي رئيس مجلس النواب السلطة مؤقتا إلى حين إجراء إنتخابات مبكرة وهي « إنتخابات المجلس الوطني التأسيسي « التي سيقع إجراؤها في 23 أكتوبر2011.

وتولى الوزير الأول محمد الغنوشي تكوين حكومة ثانية ضمت عديد الأسماء المعارضة لحكم الرئيس السابق زين العابدين بن علي ومن بينهم أحمد إبراهيم وزيرا للتعليم العالي والبحث العلمي عن حزب حركة التجديد وأحمد نجيب الشابي عن الحزب الديمقراطي التقدمي والطيب البكوش وزيرا للتربية عن اتحاد الشغل وبعض المستقلين واخرون ينتمون للتجمع الدستوري الديمقراطي1 . غير أن حكومة محمد الغنوشي الثانية وجدت معارضة من عدة أحزاب سياسية مثل حزب حركة النهضة وحزب العمال الشيوعي التونسي وغيرهم من الأحزاب المعارضة لنظام بن علي. واعتبرت هذه الأحزاب أن هذه الحكومة لم تتخلص من رموز النظام السابق. وبدت بالنسبة إليهم حكومة غير قادة على ضمان الانتقال الديمقراطي في تونس .

و بعد تنظيم اعتصام القصبة الذي نظمته عديد الأحزاب السياسية وعلى رأسها الاسلام السياسي « حركة النهضة» أعلن محمد الغنوشي استقالته. وسقطت حكومة محمد الغنوشي وتم تكليف الباجي قايد السبسي رئيسا للحكومة مؤقتا إلى حين إجراء انتخابات المجلس القومي التأسيسي.

و بعد إجراء انتخابات المجلس القومي التأسيسي في 23 أكتوبر 2011 لصياغة دستور جديد للبلاد والتي بها الإسلام السياسي « حزب حركة النهضة» طرحت على الساحة السياسية في البلاد مسألة العدالة تكريس العدالة الانتقالية والانتقال الديمقراطي . ولكن هذه المسألة تركت ردود فعل متفاوتة بين مكونات المشهد السياسي في تونس وذلك لعدة أسباب سيقع التطرق إليها لاحقا .

فماهو مفهوم العدالة العدالة الانتقالية ؟ وماهي أهم مبادئها؟

وماهي أهم الصعوبات التي واجهت مسار العدالة الانتقالية في تونس ؟

وهل كانت العدالة الانتقالية في تونس بعد أحداث 2011 أداة لإقصاء الخصوم من المشهد السياسي التونسي ؟

أولا : الإطار المفاهيمي للعدالة الانتقالية .

1) مفهوم العدالة:

لغة : يفيد العدل حسب ابن منظور الانصاف والاستقامة والحكم بالحق .

ومن العدل يشتق مصطلح العدالة التي تعدد مفاهيمها التي تعني عدم الانحياز لأي طرف أثناء المحاكمة أو التحكيم .

أي العدل او الإنصاف في الأمور ويتعارض مفهوم العدالة في اللغة مع مطصطلح الجور أي الظلم .

إصطلاحا : يفيد مصطلح العدالة إصطلاحا الابتعاد عن كل أشكال الانحياز لأي طرف مهما كان الأسباب .و بالتالي تعني العدالة في هذا السياق إعطاء كل ذي حق حقه أي الحكم بالحق الذي يتعارض مع مصطلح الظلم والعنصرية

فقد تعددت مفاهيم العدالة في الفلسفة الكلاسيكية حيث يعرفها الفيلسوف الإغريقي أفلاطون على بمثابة فضيلة لتأسيس نظام عقلاني .

وأما ارسطو فيعرف العدالة على أنها تمثل قانوني وعادل.

ويختلف مفهوم العدالة عند الفلاسفة القدامي عن مفهوم المساواة التي لا تعني إعطاء كل ذي حق حقه بل مفهوم يفيد التطابق بين شيئين دون تمييز على أي أساس وبالتالي تعني التطابق بين الجميع في الحقوق والواجبات دون تمييز.

2 - أي معنى للعدالة الإنتقالية ؟

تلتقي العدالة الانتقالية مع مفهوم العدالة في إقرار الحق وإعادته إلى أصحابه ..

لكن العدالة الانتقالية تفيد في هذا السياق إعادة الحق إلى أصحابه بعد إرتكاب انتهاكات صارخة لعدد من الضحايا خلال فترة زمنية معينة بعد تحولات سياسية معينة مثل اندلاع ثورة أو الانتقال من نظام حكم إلى فترة حكم جديد. ويبقى مفهوم العدالة الانتقالية في معظم الأحيان يشكو غموضا من الناحية القانونية .كما يفيد هذا المفهوم أيضا جملة الطرائق التي ترنو إلى تحقيق العدل في دولة القانون والمؤسسات بعد إنتفاضات شعبية أو ثورة على نظام حكم استبدادي كانت تمارس فيه انتهاكات بشعة تتنافى مع حقوق الإنسان التي نصها عليها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان2 بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ويقتضي محاسبة كل من أجرم في حدوث تلك الانتهاكات أو الجرائم.

ثانيا : مسار العدالة الانتقالية في تونس والتجاذبات السياسية

1) أي مفهوم للإقصاء السياسي في ظل غياب مشروع العدالة الانتقالية ؟

بعد تولي الأستاذ الباجي قايد السبسي رئاسة الحكومة مؤقتا بعد انتفاضة جانفي 2011 صدر مرسوما من قبل رئيس الجمهورية المؤقت فؤاد المبزع يتعلق بانتخابات المجلس التأسيسي الذي تتمثل مهمته في إعداد دستورجديد للبلاد. غير أن هذا المرسوم أحدث جدلا في الساحة السياسية بسبب إقصاء التجمعيين من المشاركة في المحطة الانتخابية حيث نص مرسوم 10 ماي 2011 في الفصل رقم 15 على ما يلي :» لا يمكن أن يترشح كل من تحمل مسؤولية في حكم الرئيس السابق زين العابدين بن علي أو من تحمل مسؤولية في هياكل الحزب الحاكم « التجمع الدستوري الديمقراطي « وتم تكليف الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والإصلاح السياسي والانتقال الديمقراطي بتحديد المسؤوليات داخل حسب التجمع المنحل منذ شهر مارس 2011 .

وشمل قرار الإقصاء كل هياكل حزب التجمع مركزيا وجهويا ومحليا أي من أعلى هرم الحزب (الرئيس) إلى أسفله رؤساء الشعب الدستورية

وحسب اعتقادنا، بدا قرار إقصاء التجمعيين من المشاركة في الحياة السياسية بعد انتفاضة جانفي 2011 دون محاكمة عادلة تعسفيا ناتج من حقد يتعارض مع مفهوم العدالة الانتقالية .

وبعد إجراء انتخابات المجلس الوطني التأسيسي، بادرت بعض الأحزاب السياسية المهيمنة على الساحة بعد 2011 مثل حركة النهضة وحلفائها في الحكم مبادرة تشريعية تسمى « قانون تحصين الثورة» الذي ينص على إقصاء التجمعيين من الحياة السياسية وذلك من خلال منعهم من ممارسة أي نشاط سياسي لمدة تصل سبع سنوات. كما لا يحق بمقتضى هذا القانون لاي مسؤول في حكومة بن علي أ وحزب التجمع الدستوري الديمقراطي المنحل من تقلد أي مسؤولية صلب الدولة .

وبما أن هذا القانون كانت ورائه حسابات سياسوية من الحزب الحاكم وحلفائه منذ سنة 2011 خشية عودة التجمعيين من جديد إلى المشهد السياسي. عارضت الكتل البرلمانية هذا القانون داخل قبة المجلس

1 – سيقع حل حزب التجمع في مارس 2011 عن طريق المحكمة الابتدائية بتونس.

2 – أعلنته منظمة الأمم المتحدة يوم 10 ديسمبر 1948 في باريس.

القومي التأسيسي وذلك لتعارض هذا القانون مع مجريات العدالة الانتقالية التي تتطلب محاكمة عدالة للمتهمين وتحدد كل من أجرم ارتكاب تجاوزات قانونية خلال فترة حكم الرئيس السابق زين العابدين بن علي . وبعد جدل واسع غير الحزب الحاكم موقفه من قانون العزل السياسي وتم إسقاط هذا القانون. وتبيّن أن هذا القانون يكرس مفهوم الاقصاء في الحياة السياسية في ظل غياب مشروع يكرس مفهوم العدالة الانتقالية.

2 - تعدد هياكل العدالة الانتقالية في تونس : من الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والإصلاح السياسي إلى هيئة مكافحة الفساد والرشوة

تم بعث هيئات متعددة بعد الإطاحة بحكم الرئيس السابق بن علي ابتداء من 17 جانفي 2011 وهي على التوالي : الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والإصلاح السياسي والانتقال الديمقراطي « و« اللجنة الوطنية لاستقصاء الحقائق « و« اللجنة الوطنية لتقصي الحقائق حول الرشوة والفساد»

و تأسست الهيئة الاولى بمقتضى المرسوم عدد6 المؤرخ في 18 فيفري 2011 وترأسها أستاذ القانون الدستوري عياض بن عاشور وتمثلت مهمتها الأساسية في تهيئة إطار ملائم لإجراء انتخابات حرة ونزيهة وشفافة غير أن هذه الهيئة تجاوزت صلوحياتها التي نص عليها المرسوم حيث سعت إلى إقصاء التجمعيين من المشاركة في انتخابات المجلس الوطني التأسيسي ومن خلال الفصل 15 من القانون الانتخابي .

وأما اللجنة الوطنية لاستقصاء الحقائق فكانت تتمثل مهمتها في التحقيق في التجاوزات التي وقعت منذ اندلاع الانتفاضة أي منذ 17 ديسمبر 2010 ولكن لم يكن لها اي صبغة تقرير بل كان دورها يقتصر على توثيق تقرير مفصل حول أحداث الانتفاضة وبالتالي تبدو هذه اللجنة حسب اعتقادنا شكلية ولا تمت بصلة في مسار تكريس العدالة الانتقالية وفق المفاهيم المتعارف عليها دوليا .

وأما هيئة مكافحة الرشوة والفساد فهي بمثابة هيئة مستقلة إداريا وماليا وتتمثل مهمتها في التحقيق حول مظاهر الرشوة والفساد التي سادت البلاد في القطاعين العام والخاص لجمع المعطيات المتعلقة بهذا الموضوع خلال حكم الرئيس بن علي واقتراح سياسات لمكافحة الفساد ولكن هذه الهيئة لم تقدم النتائج التي توصلت إليها في ندوة صحفية وبالتالي بقيت هذه اللجنة حسب اعتقادنا بعيدة عن مسار العدالة الانتقالية ..

وهكذا تعددت هيئات العدالة الانتقالية في تونس منذ اندلاع انتفاضة 2011 ولكن ظل مسار تكريس العدالة في تونس بعد سقوط حكم الرئيس بن علي منقوصا ويعود تفسير ذلك إلى بروز مفهوم الإقصاء دون إجراء محاكمة عادل لمسؤولي النظام السياسي السابق، إضافة إلى ظهور الحسابات السياسية الضيقة لبعض الأحزاب في تونس بعد 2011. فهل سيبقى مسار العدالة الانتقالية منقوصا بعد إحداث هيئة الحقيقة والكرامة؟

ثالثا : هيئة الحقيقة والكرامة واستكمال تكريس العدالة الانتقالية

1 - أي علاقة بين استكمال مسار العدالة الانتقالية والتشكيك في تاريخ تونس المعاصر ؟

أحدثت هيئة الحقيقة والكرامة بمقتضى المرسوم عدد 53 المؤرخ في 24 ديسمبر 2013 الذي حدد صلاحياتها ومجالات نشاطها. وتتمثل صلاحيات هذه الهيئة حسب المرسوم 53 في الكشف عن جرائم منظومة الاستبداد ومحاسبة المسؤولين عن الانتهاكات والتجاوزات التي لحقت عددا هاما من الضحايا نتيجة معارضة نظام سياسي مستبد، إضافة إلى ما تقدم تكمن صلاحيات هذه الهيئة أيضا في العمل على حفظ الذاكرة الجماعية وإرساء مقومات الانتقال الديمقراطي في تونس لمنع عودة الاستبداد من جديد . ولكن هل كانت هيئة الحقيقة والكرامة في تناغم تام مع صلاحياتها ؟

بعد تشكيل هيئة الحقيقة والكرامة سنة 2013 ،اعتبرت رئيستها في المنابر الاعلامية أنها تمكنت من كشف وثائق تؤكد ان تونس بلد غير مستقل من خلال تنازل الزعيم الحبيب بورقيبة عن بعض مقومات سيادة البلاد وذلك بالتواطؤ مع بعض المؤرخين وهما عبد الجليل التميمي المختص في تاريخ الجزائر الحديث وتوفيق البشروش الذي أكدا ان تاريخ تونس المعاصر في حاجة إلى إعادة كتابة.

أثارت هذه المسألة جدلا واسعا في الأوساط السياسية والأكاديمية على حد السواء، حيث أكد جل المؤرخين المختصين في التاريخ المعاصر بالجامعة التونسية أن التشكيك في استقلال تونس لم يكن نتيجة فراغ بل هو تشويه ممنهج لتاريخ يمثل اعتزازا في الخطوات الأولى من مسار بناء الدولة الوطنية الحديثة وخاصة الانجازات السياسية والاجتماعية لمؤسس الدولة الوطنية الرئيس الحبيب بورقيبة والتي تمثل قلقا وحقدا تجاه خصومه

و ضمن هذا السياق اعتبر المؤرخ خالد 3 أن هذا الحقد على تجربة تأسيس الدولة الوطنية والاستقلال الذي حققه الحبيب بورقيبة ورفاقه في النضال مثل الصدام الأول مع خصوم الحداثة في تونس حيث رفض شيوخ الزيتونة تعميم التعليم وفتح المدارس امام البنات .

واستغلت هيئة الحقيقة والكرامة الخلاف اليوسفي البورقيبي الذي يعود تاريخه إلى سنة 1955 حول الاستقلال لتؤكد أن تونس لم تظفر باستقلالها عن فرنسا واعتبرت أن الثروات البلاد مازالت تنهب من قبل المستعمر .

و بالتالي يمكن القول مما تقدم أن هيئة الحقيقة والكرامة استغلت الوضع الدقيق في البلاد وسارعت إلى التشكيك في تاريخ البلاد ضمن إطار تصفية حسابات سياسية ضيقة .

2) العدالة الانتقالية بين المصالحة والمحاسبة : مسار منقوص أم تصفية حسابات بين أطراف سياسية؟

بادر الرئيس التونسي الباجي قايد السبسي في جوان 2015 بتقديم مشروع قانون المصالحة الاقتصادية إلى البرلمان التونسي للمصادقة عليه . وقد أثار هذا القانون جدلا كبيرا في الساحة السياسية بين مؤيدين ورافضين له .

يرى المؤيدون لقانون المصالحة أنه يمثل خطوة جديد لاستكمال مسار العدالة الانتقالية في تونس وفرصة جديدة لفتح باب الاستثمار وتحريك عجلة الاقتصاد الوطني . في المقابل يرى المعارضون لهذا القانون أنه بمثابة حلقة لتبييض الفساد وتكريس الإفلات من العقاب تجاه من ارتكب انتهاكات وتجاوزات زمن حكم الرئيس بن علي.

لقي قانون المصالحة في تونس معارضة شديدة من قبل أغلب الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني ونظم نشطاء الأحزاب ومنظمة حملة مانيش مسامح. واعتبرت منظمات المجتمع المدني قانون المصالحة أنه بمثابة عفوا على الذين ارتكبوا عمليات فساد دون محاسبة ومحاكمة عدالة. وبالتالي اعتبروا هذا القانون خطوة لطمس مسار العدالة الانتقالية في تونس. ومن أهم المنظمات التي عارضت قانون المصالحة نذكر الاتحاد العام التونسي أعرق تنظيم نقابي في البلاد ودعا أمينه العام نورالدين الطبوبي الرئيس الباجي قايد السبسي إلى التريث ونادى بضرورة إجراء حوار مجتمعي حول مسار العدالة الانتقالية والمصالحة الوطنية

وفي ذات السياق اعتبرت الأحزاب ذات المرجعية الدستورية المؤيدة لقانون المصالحة الوطنية أن هذا القانون جزء مهم في مسار العدالة الانتقالية في تونس ،بل اعتبرت أن القول إن هذا المشروع هو بمثابة حلقة لتبييض الفساد والإفلات من العقاب فيه حقد ومغالطة لا أساس لها من الصحة.

وعند الإطلاع على قانون العدالة الانتقالية فإن المصالحة تعد خطوة أساسية في مسار تكريس العدالة الانتقالية في البلاد وذلك استكمال كامل المسار أي محاسبة كل من ارتكاب تجاوزات زمن حكم الاستبداد . غير أن هناك شق اخر من التونسيين يرى أن المرور مباشرة إلى المصالحة الوطنية فيه فوائد اقتصادية ولا يتنافى مع مبادىء العدالة الانتقالية .

ويمكن القول إن مسار تكريس العدالة الانتقالية في تونس شهد الكثير من الصعوبات والتعثرات رغم تعدد الهيئات والمبادرات منذ سقوط حكم الرئيس بن علي وذلك نتيجة غياب توفر أرضية ملائمة بسبب الحقد بين الأطياف السياسية وغياب الإرادة السياسية الحقيقية لبناء الدولة القانون والمؤسسات وظل مسار العدالة الانتقالية في تونس منقوصا

ختاما يمكن القول حسب اعتقادنا أن تكريس العدالة الانتقالية في تونس ظل متعثرا بسبب غياب الآليات التي ستعتمد لتطبيقها على أرض الواقع رغم تعدد الندوات التي شارك فيها رجال القانون والسياسة. وظلت العدالة الانتقالية في تونس كخطوة مهمة لبناء دولة القانون والمؤسسات ومنع عودة الاستبداد فكرة لم تتبلور بسبب كثرة التجاذبات السياسية في البلاد وتغلغل مفهوم الإقصاء في المشهد السياسي .

---

3 – عبيد، (خالد) ، « هيئة الحقيقة والكرامة ولعبة الضحك على ذقون التونسيين» ، الشروق، 12 مارس 2018.

الهوامش :

قانون الأساسي عدد53، المؤرخ في 24 ديسمبر2013 .

المرسوم عدد35 ، المؤرخ في 10 ماي 2011 .

بن يوسف ، (عادل) ، المسار الثوري والانتقال الديمقراطي في تونس من خلال الوثائق، مكتبة علاء الدين ، صفاقس ، 2019 .

الحناشي، (عبد اللطيف) ، تونس من الثورة التائهة إلى الانتقال الديمقراطي العسير، دار سوتيميديا ، تونس ، 2019 .

جماعي ، العدالة الانقالية والانتقال الديمقراطي في البلدان العربية، الجزء 1 ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، تونس ، 2022 .

عبيد، (خالد) ، « هيئة الحقيقة والكرامة ولعبة الضحك على ذقون التونسيين» ، الشروق، 12 مارس 2018

عن الكتاب في تونس بعد ما يُسمّى «ثورة»

أنس الشابي

سنة 2011 انهار النظام السابق وحلّت محلّه منظومة أخرى حكمت البلاد وتصرّفت في مقدراتها انتهت بنا إلى ما نحن عليه اليوم من هوان وصعوبات في مختلف المجالات، فكلّ الحكومات التي تداولت على الحكم كانت تُسَيِّر الشأن العام يوما بيوم فلم تكن هنالك أيّ استراتيجية في أيّ قطاع باستثناء الشأن الديني الذي حرصت حركة النهضة على رعايته وتوسيع مجالاته وتكليف أعوانها بتسييره فأصبحت وزارة الشؤون الدينيّة واحدة من أكثر الوزارات أهميّة على مستوى الانتشار إذ تغطّي كامل أرجاء الوطن من خلال 24 إدارة جهويّة وما يفوق 5000 جامع وعلى مستوى ميزانيتها التي يتمّ الترفيع فيها كلّ سنة رغم أنّها لا تقدّم للمجموعة أيّ خدمة مقابل ما يُصرف لها من أموال، وانقلبت ما يسمّى جامعة الزيتونة الكائن محلّها في رحبة الغنم إلى بناية مهمّتها إسناد شهادات الدكتورا للمنتسبين للتيارات الإسلاميّة لتمكينهم من الشهادة العلميّة وغرسهم في مختلف الإدارات، كلّ ذلك بجانب الجمعيّات والأحزاب والكتاتيب التي تصبّ جميعها في خانة حركة النهضة، أمّا باقي المجالات فلم تجد من حكم العشر سنوات الماضية سوى الإهمال والترك، ففي الميدان الثقافي أُعلنت الحرب على الإبداع في المسرح والسينما والرسم والكتابة، والمحزن حقا أنّ مكتسبات الاستقلال في الميدان الثقافي ضاعت واندثرت، فالثقافة التي كانت تعتبر خدمة تؤدَّى للمواطن أصبحت اليوم سلعة كباقي السلع وتأمّلوا مليّا الإنتاج الثقافي في الستينات والسبعينات والثمانينات بما يحمل من قيم المواطنة وتهذيب الذوق وفتح الآفاق المعرفيّة ورعاية المواهب وما أصبح عليه الحال اليوم من خواء وفقر وسطحيّة وهوان، فالدولة التي كانت راعية للثقافة استقالت من مهمّتها وتُركت مؤسساتها بلا رقيب أو حسيب وفيما يلي أمثلة لما ذكر:

بيت الحكمة

أسّس هذا المجمع بغاية التعريف بتونس تاريخا ورموزا وشخوصا ونشر المؤلّفات التي يعجز الخواص عن تحمّل كلفتها ويتمّ ذلك إعداد ذلك وتنفيذه من خلال مجلس علمي يتكوّن من خيرة ما أنجبت تونس من علماء وأثريّين وفنانين وكتّاب ومبدعين ممّن ثبت إشعاعهم في ميادين اختصاصهم وأصبحوا مراجع فيها، ولأنّ الثالوث الحاكم اعتبر الدولة غنيمة تُقسم بينهم عيّنوا في المجلس العلمي لبيت الحكمة مندوبين عنهم ففيما يخصّ حركة النهضة عيّنت إماما خطيبا يسافر مأجورا لدى شركات السفر مرشدا للحجيج والمعتمرين ولم تُعرف له إضافة معرفيّة معتبرة ولم ينشر إلا بعض المقالات كأحكام الأرض في الإسلام أو بعض الأحاديث في إذاعة المنستير وآخر لم يكتب في حياته سوى 20 صفحة عن البشير بن سلامة والأمّة التونسيّة ونصّا عن الهجرة وثالث هو أوّل من ابتدع مناشدة الرؤساء للترشح ويرى أنّ السياحة بغاء سري ورابع دخل الإسلام من باب السياسة فأعدّ أطروحة عن الصحافة الدينيّة في تونس وهو عمل توثيقي حصر فيه عدد الصفحات الدينيّة وكتّابها ومضامينها وهو عمل لا يرشّح صاحبه لا لترؤّس قسم الدراسات الإسلاميّة ولا لعضويّة البيت، ورغم كلّ ذلك تجدهم في مجلس كان من المفروض أن يكون من بين أعضائه العاملين وليس الشرفيّين أو المراسلين إبراهيم شبوح والبشير البكوش وعلي الشابي وعبد القادر بشتة وإبراهيم بن مراد والمنجي الكعبي وغيرهم من العلماء الذين تشرف بهم تونس ويزين حضورهم أيّ مجلس علمي، وبطبيعة الحال أدّى هذا الاختيار القائم على المحاصصة الحزبيّة إلى ضعف مردود المجمع الذي أصبح عبارة عن دار جهوية للثقافة تستدعي البعض للثرثرة حول موضوع ما ثمّ تنشر الحصيلة في كتاب، ومن غرائب المجمع أنّه نشر موسوعة تونسيّة تعتورها الأخطاء والمحسوبيّة من ذلك إهمالها نسبة الفصول إلى أصحابها ونشرها غفلا من أسماء مؤلّفيها والاكتفاء بجمع الكُتّاب في قائمة واحدة وهذه بدعة لا نظير لها إلا في البيت التونسي وأسباب ذلك:

* استحواذها على نصوص الآخرين ومقالاتهم دون علمهم والتصرّف فيها بالنشر دون إذن مع الإضافة والإنقاص والتغيير حتى لا يتفطن أصحابها وحتى تمنع عنهم حقوقهم المادية.

* حشر أشخاص والتعريف بهم بلا مبرّر سوى انتماؤهم لحركة الاتجاه الإسلامي كعبد الرحمان خليف الذي خصّصت له الموسوعة صفحتان رغم أنّ الرجل متواضع علميّا فهو مختص في القراءات ومن مستوري الحال إذ كان مفقد تربية إسلاميّة وليس له من الإنتاج العلمي إن اعتبرناه كذلك سوى صفحات عن الصوم أو المشاركة في تأليف الكتب المدرسيّة التي فرّخت لنا جيلا من المتطرّفين وكذا الأمر مع محمد الصالح النيفر الذي لا نعرف له تأليفا أو إضافة معرفيّة فقد عرف الرجل بمدحيّاته في الأمين باي وفي نفس الوقت عبثا تبحث عن عبد الرحمان الصنادلي صاحب جريدة الزهرة التي بقيت تصدر ما يفوق الخمسين سنة والتي تُعتبر بحقّ مدوّنة الثقافة والسياسة التونسيّة في النصف الأوّل من القرن العشرين، وعبثا تبحث عن سيّد القوافي الشاعر الكبير أحمد اللّغماني.

والذي نخلص إليه أنّ الموسوعة التونسيّة ليست إلا نسخة مشوّهة لِما يجب أن تكون عليه الموسوعات، كما أنّها لا ترقى إلى نظيراتها كالمعلمة المغربيّة التي تتكوّن من 27 مجلدا ذات 9400 صفحة احتُرمت فيها كلّ الضوابط العلميّة من فهارس وغيرها ممّا أتينا على بعضه أعلاه.

ومن شناعات هذا البيت أنّه اتفق مع الأستاذين رشيد الغزي ومحمود طرشونة على ترجمة أطروحة محمد فريد غازي عن ابن المقفع التي ناقشها سنة 1957، وهي أوّل دكتورا يحصل عليها تونسي، ولكن بعد أن تقدّم الأستاذان خطوة كبيرة في العمل اتّصلا برسالة من رئيس البيت يعلمهم فيها أنّه تمّ التخلي عن المشروع، الأمر الذي دفع الأستاذين إلى إتمام العمل تطوّعا ثمّ قامت بلدية جربة حومة السوق واللجنة الثقافية في جربة بالتكفّل ماديا بطبعه مشكورين، وفي نفس الوقت تنشر بيت الحكمة ديوان شعر لصيني مُترجم إلى العربيّة عنوانه تونس يا حبي!!!!!.

أمّا المؤلّفات الكاملة لكبار الرموز الثقافيّة التي كان من المفروض أن يجمعها ويصدرها المجمع فغائبة بحيث لا نجد حسن حسني عبد الوهاب أو محمد المرزوقي أو الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ولكن نجد الآثار الكاملة لأحمد الدرعي الذي لن يحفظ له التاريخ سوى مناصرته للطاهر الحداد، والغريب في الأمر أنّ منشورات بيت الحكمة تباع بأسعار السوق رغم أنّ ميزانيّتها محمولة على الدولة وكان من المفروض أن يظهر ذلك في السعر فبدل أن تباع الموسوعة التونسيّة بثمن رمزي لأنّها مدعومة من الدولة ومن المفروض أن تكون موجودة في كل منزل نجد أن سعرها 120 دينارا، وهكذا تصبح الدولة في عرف البيت كأيّ ناشر خاص يسعى إلى الربح ولو على حساب جيب المواطن، أمّا كتاب مساهمة إيران في الثقافة الإسلاميّة للشيعي الفارسي والوزير في حكم الملالي عطاء الله مهاجراني فيباع بدينار ونصف.

المكتبة الوطنيّة

أيّام الدراسة كنا نذهب إلى المكتبة الوطنيّة دون دفع أيّ ملّيم ولكن في عهد ما يسمّى «الثورة» أصبح الدخول إليها بمقابل يبدأ من 3 دنانير للحصّة الواحدة ليصل إلى 30 دينار للاشتراك، وكنت أعتقد أنّ هذه المعاليم ستُساهم في تحسين الخدمات، غير أنّ الملاحظ أنّها تتردّى يوما بعد يوم فالكثير من الدوريّات في حالة يُرثى لها طالتها أيدي الزمان والعابثين بالإفساد والتمزيق وأيدي الإدارة بالتلهي عنها والانشغال بالندوات المفرغة من أيّ فائدة، ومن المتعارف عليه في مكتبات الدنيا جميعها أنّها تعيد نشر مجموعات المجلات لديها خصوصا منها ذات الأثر الثقافي الكبير أمّا لدينا فإنّ المكتبة لم تنشر سوى مجلة الشباب والمباحث في نسخ محدودة لأسباب غير علميّة وتُهمل في نفس الوقت مجلات الثريا أو الجامعة أو شمس الإسلام وغيرها، وممّا أصابني بالذهول هذه الأيام أنّ أحد الأصدقاء أخبرني بأنّ إدارة المكتبة قرّرت بأن لا يتجاوز التصوير الخمسين صفحة وهو أمر في غاية العبث إن حدث، ذلك أنّ الباحث في بقاع الدنيا جميعها يستطيع الحصول على أيّ مخطوط أو منشور من أيّ مكتبة كاملا وهو ما يؤكّد أن تونس استثناء فعلا واستثناء في كلّ شيء.

وزارة الثقافة

كان الكتاب يحتلّ موقعا متميّزا في وزارة الثقافة فهي أكبر داعم له من خلال الشراءات وغيرها من الحوافز المتعلّقة بالورق والنقل وغيرهما وكانت الوزارة تقتني من كلّ عنوان ما يفوق 350 نسخة لتوزيعها على مكتبات المطالعة العموميّة وهو ما يساعد على تغطية مصاريف الطبع، ولكن بعد أن وصلت حركة النهضة إلى الحكم قامت بتحويل جزء من ميزانيّة وزارة الثقافة إلى وزارة الشؤون الدينيّة لذلك لم تعد الوزارة قادرة على دعم الكتاب لشحّ في الموارد وأصبحت الشراءات لا تتجاوز 20 أو 30 نسخة من بعض العناوين بما يعني إفقار رصيد المكتبات العموميّة، كما كانت الوزارة تصدر سلسلة ذاكرة وإبداع المخصّصة للتعريف بالشخصيّات الأدبيّة والفنيّة المغمورة آثارها في الجرائد والمجلات بجمع تراثها والتعريف بها ولكن تمّ إيقافها في حكم النهضة، اليوم لم يبق للوزارة من منشورات كانت تعدّ بالعشرات سوى مجلة الحياة الثقافيّة ومنشورات منتدى الفكر التنويري التونسي اللّتين يشرف عليهما المثقّف محمد المي، أمّا المعرض السنوي للكتاب فحدّث ولا حرج فقد استحوذ عليه الجامعيّون الذين جعلوا منه سوقا لبيع الألعاب والبخور وكتب الطالع والجن والسحر بدل أن يكون مناسبة إشهار للكتاب الثقافي والعلمي، وأختم بفضيحة معهد تونس للترجمة الذي ترجم فصولا من دائرة المعارف الإسلاميّة إلى اللّغة العربيّة رغم أنّ الدائرة مترجمة سابقا لتصرف بذلك العملة الصعبة نظير حقوق التأليف وغيرها من المصاريف على كتاب ينام هانئا في مخازن المعهد صحبة غيره من العناوين البائرة التي طبعها المعهد.

لم أتناول في مقالي هذا سوى ما أنا متابع له وأتمنّى أن لا يكون حال باقي المجالات كالمسرح والسينما والموسيقى كحال المأسوف على شبابه الكتاب التونسي.

mahindra Rise
AUTOMOBILES ZOUARI
Célébrez l'Automne
Du 15 octobre au 30 novembre
PLEINS
D'AVANTAGES CLIENTS
5 ANS D'ENTRETIEN GRATUIT
TAUX PRÉFÉRENTIELS
PLEINS DE CADEAUX
VISITEZ NOTRE SITE | WWW.MAHINDRA-TUNISIE.COM

قمة «بريكس» الأخيرة :

الهند تطلّق أمريكا لكن لماذا غاب بن سلمان ؟

الحبيب القيزاني

مثلت قمة مجموعة «بريكس» الملتئمة مؤخرا بمدينة قازان برئاسة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين منعرجا في النظام العالمي. وشكل اجتماع أكثر من 30 رئيس دولة رمزا لصعود قطب بديل عن القطب الغربي ليتّضح أن انحسار الهيمنة الغربية مجسدة عبر الحلف الأطلسي ومجموعة الـ 7 بات ملموسا ويعكس إرادة منظومة بريكس لبناء نظام عالمي يقطع مع السيطرة الغربية.

فالدول التي سارعت الى الانضمام تحت لواء بريكس تبحث عن التحرّر من نفوذ القوى الغربية العظمى. وقد شكل توسع المجموعة خلال هذا العام الحدث الأبرز لتصبح «بريكس +» وليتشكل عدد البلدان التي تكونها الى جانب البلدان الخمس الأولى وهي البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب افريقيا من مصر واثيوبيا وايران والعربية السعودية والامارات العربية المتحدة. لكن قمة قازان شهدت تقدم نحو 30 دولة أخرى بطلب الانضمام للمجموعة منها بالخصوص الجزائر وبنغلاديش والبحرين وفنزويلا وباكستان وماليزيا وأذربيجان وتركيا.

46 % من سكان العالم و35 % من الناتج المحلي الخام العالمي

تشكل الدول العشر المنضوية في «بريكس +» أكثر من 46 ٪ من مجموع سكان العالم وهو ما يمثل حوالي النصف باعتبار أهمية نسبة النمو الديمغرافي في هذه الدول مقارنة بالنمو الديمغرافي في مجموعة الـ 7 والتي يناهز عدد سكانها مجتمعة 10 ٪ فقط من مجموع سكان الكرة الأرضية.

على الصعيد الاقتصادي كان مجموع الناتج المحلي الخام لمجموعة الـ 7 عام 1992 أكثر من 45 ٪ من الناتج المحلي الخام العالمي بينما كان مجموع الناتج المحلي الخام للدول الخمس التي اتحدت في ما بعد لتشكل منظومة بريكس (البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب افريقيا) 16 ٪.

في عام 2021 تجاوزت حصة دول «بريكس» من الناتج المحلي الخام العالمي 35 ٪ في حين تراجعت نسبة مجموعة الـ 7 الى 29 ٪ ولا تزال الهوّة بينهما تتسع. وحسب تقديرات البنك العالمي من المنتظر أن تحقق دول بريكس قبل نهاية هذا العام نسبة نمو اقتصادي بـ 4 ٪ مقارنة بنسبة بـ 1،7 ٪ لدى مجموعة الـ 7.

على صعيد التجارة العالمية تحتكر مجموعة «بريكس» نحو 25 ٪ من صادرات السلع فيما تهيمن بعض دولها على أسواق رئيسية مثل أسواق مصادر الطاقة والمعادن والمنتوجات الغذائية.

أما بنك التنمية التابع لمنظومة «بريكس» فهو بصدد التحوّل الى مستثمر بأغلب مشاريع التكنولوجيا والبنى التحتية بالدول المعنية. وفي اطار هذا الفضاء الذي كان الدولار والأورو هما العملتان الأساسيتان لعقد كل الصفقات، ارتفعت حصة عملات الدول المنضوية تحت لواء مجموعة بريكس الى 65 ٪ مقابل تراجع حصتي الدولار والأورو الى ما تحت الـ 30 ٪.

إضافة الى ذلك يشهد فضاء دول «بريكس» بناء شبكة واسعة من البنى التحتية مثل الممر البحري الشمالي وممرّ النقل شمال – جنوب الذي فتحته روسيا بعدما أغلقت دول الناتو والاتحاد الأوروبي طرقات الترانزيت في اتجاه الغرب الى جانب مشروع الممرّ الاقتصادي المتكون من خطوط السكك الحديدية التي تربط روسيا بمنغوليا والصين وطريق الحرير الجديدة برّا وبحرا في اتجاه أوروبا ودول آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية.

معهد الأبحاث في العلاقات الخارجية الذي يشكل احد اهم مراكز الدراسات الاستراتيجية المستقبلية بأمريكا دق جرس الإنذار محذّرا : «اذا لم تتحرك الولايات المتحدة، يمكن أن تتعاظم قوة مجموعة «بريكس» وتنسق سياساتها ضد مصالح أمريكا وتكتسب القدرة على قلب النظام العالمي الذي تجنّب الى حدّ الآن وقوع صراعات كبرى».

هذه باختصار فكرة عامة عن ميزان القوى بين الغرب ومجموعة «بريكس» وهي نظرة لا تشمل عنصرين أساسيين هما العنصر السياسي والعنصر العسكري ممّا يفتح الباب أمام التخمينات والفرضيات حول إمكانية بروز تكتّل اقتصادي – سياسي – عسكري مواجها للكتلة الغربية بثقلها الاقتصادي – السياسي – العسكري.

هذه الامكانية باتت واردة بعد نجاح بوتين في إعادة الدفء الى العلاقات الصينية – الهندية المتوترة نتيجة خلافات حدودية بين البلدين. وقد وقع الرئيس الصيني ورئيس وزراء الهند على اتفاق أنهى التوتر بين بلديهما وقضى على آخر آمال واشنطن لاستمالة الهند الى جانب الحلف الغربي.

موقع Asia Times كتب في هذا السياق أن الهند خسرت الكثير من وزنها الجغراستراتيجي بعد تحالفها طيلة أعوام مع الولايات المتحدة التي لم تكن ترغب سوى في أن تكون الهند حليفا خاضعا لسياساتها وبلا سيادة استراتيجية الشيء الذي يحرمها من منطقة نفوذ جهوية بجنوب آسيا ليس لواشنطن أي استعداد لرؤية من ينافسها عليها.

وحسب Asia Times يبحث رئيس وزراء الهند على قلب المعادلة عبر تعويض الولايات المتحدة بالصين وهو ما حدث في قمة قازان التي تمخضت عن تفاهم بين الدولتين الأكثر تعدادا للسكان زيادة على الدولة الأكبر مساحة في العالم (روسيا) وهو ما يمثل كارثة بالنسبة لمخطط الولايات المتحدة للهيمنة على دول آسيا.

الحدث الثاني الذي مرّت عليه أغلب وسائل الاعلام مرور الكرام هو غياب ولي العهد السعودي عن قمة «بريكس» الأخيرة رغم تلقيه دعوة شخصية من الرئيس بوتين واكتفى بارسال وزير خارجيته. وهنا كشفت بعض المواقع الأمريكية عن وجود تحفظات سعودية على امدادات السلاح التي أرسلتها مؤخرا روسيا الى ايران قبل الضربة الإسرائيلية الأخيرة باعتبار أن من شأن ذلك أن يمس من التوازن العسكري القائم بين منظومة دول الخليج من جهة وايران من جهة أخرى. هذا الى جانب عدم رضا الرياض على امداد ايران جماعة الحوثي باليمن بصواريخ بالستية فرطصوتية وذلك تحسبا من استعمالها ضد المملكة في أي خلاف جديد قد ينفجر بين البلدين.

موقع Axios الأمريكي لفت الانتباه الى دور وساطة قال إن رئيس الامارات محمد بن زايد يلعبه بين السعودية وروسيا للإبقاء على شعرة معاوية بين البلدين بالنظر خصوصا لثقلهما في منظمة «أوبك +» مذكرا بأن بن زايد كان قبل التحوّل الى مدينة قازان في أمريكا وأنه ربّما يكون قد حمل لبوتين اقتراحات أمريكية حول وضع حدّ للتصعيد بين ايران وإسرائيل وكذلك انهاء الحرب الدائرة بأوكرانيا.

الحدث الثالث الذي ميّز قمة «بريكس» الأخيرة هو حسب «نيويورك تايمز» حضور الرئيس التركي الذي تنتمي بلاده الى الحلف الأطلسي وتطمح مع ذلك للانضمام الى منظومة «بريكس» بعدما يئست من قبول مطلبها للانضمام الى الاتحاد الأوروبي. ولاحظت الصحيفة أن تركيا استدارت نحو الشرق مذكرة بأنه سبق لأردوغان أن أعلن عن نهاية علاقة بلاده بصندوق النقد الدولي والبنك الدولي مشيرة الى أنه يبدو أنه يبحث الآن عن بديل قد يكون بنك بريكس لتمويل بلاده في ظل الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تمر بها.

رغم كل ذلك تبقى قمة بريكس الأخيرة قمة رمزية ويخطئ من يعتقد أن المنظومة ستقضي على الدولار لأن ذلك قد يتطلب عقودا من التوسع واحتكار التجارة والمعاملات المالية الدولية التي يسيطر الدولار اليوم على 58 ٪ من حجمها حسب كلام وزيرة الخزانة الأمريكية.

ان خطورة مجموعة «بريكس» أنها بصدد التوسع وأن قممها تنعقد بانتظام لأن كل الدول التي انضمت اليها أو ترغب في ذلك تمرّدت على النظام الاقتصادي والمالي العالمي الحالي.

مجموعَة «بريكس»:

آفاق -كبيرة وتحديات كثيرة

صالح مصباح

احتضنَت روسيا منذ أيام قمّة دول "بريكس" وحضرتها 36 دولة ممثّلة على الجملة بقادتها الأوائل. والدول المشاركة هي الدول المؤسسة للمجموعة والدول الملتحقة بها والدول المرشحة و الدول المساندة. وبهذه القمة حقّقت روسيا هدفا سياسيا ظرفيا، وهو تأكيد أنها ليست دولة معزولة عن العالم، مثلما أراد لها الغربُ الذي سلط عليها شتى ألوان العقوبات اعتراضا على الحرب التي تشنّها على أوكرانيا.

لكن أهداف "بريكس" أعمق من ذلك الهدف الذي حقّقته روسيا. فهي دول يقارب مجموعُ اقتصاداتها نصف اقتصاد العالم، وتتحرك نحو إعادة صياغة النظام العالمي بوجوهه الاقتصادية والنقدية والسياسية والقانونية. فهي دول، بنواةٍ لها صُلبة تمثّلها روسيا والصين، تعترض على النظام العالمي الحالي الذي كرسته إلى حد كبير أمريكا التي تمكنت من ذلك بعد أن مرت بمرَاحل أربع كبرى.

1/ أمريكا و العالم

مرت أمريكا إلى صياغة النظام العالمي نتيجة مكاسب لها راكمتها بمراحل أربع كبرى. أما المرحلة الأولى فتمتدّ من أواخر القرن التاسع عشر الى أوائل القرن العشرين. ففي هذه المرحلة رسّخت أمريكا حدودها ترسيخا نهائيا آمنا. ففي شرقها وغربها محيطان حاميان. وفي جنوبها المكسيك التي انتزعت منها أمريكا أراضي شاسعة سلمت لها بها نهائيا بفعل موازين القوى المتفاوتة. وفي الشمال دولة كندا ذات الأراضي الشاسعة والديمغرافيا الحسيرة، والتي بينها وبين أمريكا روابط ومشتركات إلى حد أن سمير أمين سماها الولاية الأمريكية الحادية والخمسين .

أما المرحلة الثانية فهي التّطلع الأمريكي إلى العالم الخارجي. وتتويج هذه المرحلة هو نهاية الحرب العالمية الثانية. فقد خرجت منها أمريكا ضمن المنتصرين ومُتزعمةً الغرب على أنقاض بريطانيا و فرنسا. وتكثّفت زعامة أمريكا للغرب و لقسم كبير من العالم باحتدام الحرب الباردة التي قسمت أغلب العالم إلى كتلتين إحداهما في فلك أمريكا والأخرى في فلك الاتحاد السوفياتي. ومن مرابيح أمريكا من انهيار أوروبا إثر الحرب العالمية الثانية أن الاقتصاد الأمريكي صار يناهز نحو 60 % من الإقتصاد العالمي.

أما المرحلة الثالثة فهي فصل أمريكا للدولار عن الذهب في أول سبعينات القرن الماضي، لما اضطرت إلى طبع الدولار بلا حساب. وكان ذلك أكبر سرقة في التاريخ على رأي البعض. وحجة أمريكا في هذا الفصل أن ضمانة الذهب للدولار تعوّضُها ضمانةُ الإقتصاد الأمريكي. وعمّقت أمريكا ريادة الدولار في العالم بأن ربطته بالبترول بَيعا وتسعيرا. كان ذلك بلعبة الداهية "كيسنجر" التي عقدها مع السعودية.

أما المرحلة الرابعة فهي مرحلة ما بعد تفكك الإتحاد السوفياتي سنة 1991. إنها مرحلة الحصاد الأمريكي لما تراكم على امتداد نحو قرن . فقد كسبت الرهان الإيديولوجي كسبا صار يَرُوج به مفهوم "نهاية التاريخ" على رأي "فوكوياما" القاصد به ألا إيديولوجيا أخرى ستظهر. وصارت القوة العسكرية الضاربة الأولى، والقادرة على ضرب أي مكان في العالم. ورسّخت أمريكا المزيد من هيمنة الدولار رغم ظهور العملة الأوروبية. واشتدّ تَحَكّمُها في المنظمات الدولية إلى حدّ أنّها صارت في أحيان كثيرة تأتمر بأمرها. لقد استوت على عرش العالم قطبا واحدا لا منازع له، وناظما لقواعد العولمة، معاقبا كل دولة مارقة عليها سواء باختلاق النزاعات الحدودية أو النزاعات الداخلية حسب "كاستلس". وزادت على ذلك فوسعت حلفها الأطلسي بدول كانت ضمن الحلف السوفياتي، ناكثة ما وعدت به موسكو أثناء التفاوض على توحيد ألمانيا.

2/روسيا الاستفاقة الثأرية:

بعد نحو عشرية من التيه والوهن والمهانة جاء بوتين، ضابط المخابرات في العهد السوفياتي. جاء محملا بعقيدة أن تفككك الإتحاد السوفياتي هو بعبارته "أكبر غلطة في الجغرافيا السياسية" وأنّ" مَن لا يحزن لذلك التفكك لا قلب له، ومن يحلم باستعادة الاتحاد لا عقل له". ومن هذا وذاك بدأ لعبته الأثيرة لديه؛ "الجغرافيا السياسية " يستعيد بها ما يقبله القلب والعقل، وهو روسيا الفاعلة في العالم قطبا قائم الذات فيه، ناسخا للأحادية القطبية.

توخى بوتين في ذلك التدرج الحكيم. رتّب البيت الروسي من الداخل سياسيا وأمنيا واقتصاديا. وتدارك فجوة التكنولوجيا العسكرية بينه وبين أمريكا، مستفيدا من الرصيد العلمي والصناعي السوفياتي المهول. لا بل حقق مزيدا من التفوق في المجال الصاروخي الذي كان من نقاط التفوق السوفياتي. ودعم القوة البحرية التي لم تكن على أيام الإتحاد السوفياتي نفسه تضاهي البحرية الأمريكية، نظرا إلى حسابات كل بلد. ثم شرع في قضم مناطق في الجوار، دَرءًا لاختلال حساب الجغرافيا السياسية، وتنفيذا لعقيدة الثأر المَغذُوّة بروح قومية وقيم ثقافية محلية مناهضة للغرب. فكان أن اقتطع من جورجيا" إيسيتيا" وأخضع الشيشان، مَرّ سنة 2014 إلى القضمة الأهم؛ القرم، والتي حملت في طياتها أسباب الحرب الدائرة اليوم بين روسيا وأوكرانيا، وهي حرب هيأت لها أمريكا أسباب انقداحها، لإشغال موسكو عن تطلعها إلى منازعة واشنطن في أحاديتها القُطبية.

لكن أمريكا وهي تمارس هذه اللعبة التي هي حرب على روسيا بالوكالة أو هي حرب شبه مباشرة أحيانا، نسيت وصية "كيسنجر"، وهي أن اندحار الغرب عن زعامة العالم سيكون بتحالف روسي صيني.

3 /الصين التاجر المهادن

من المفارقات أن روسيا التي لا يحكمها حزب شيوعي إنما لها في مواجهة الغرب ابعاد إيديولوجية وثقافية، لكن الصين التي يحكمها حزب شيوعي لا تعير لهذه الأبعاد اهتماما. هل لأنها حصينة بثقافتها المحلية ؟!

لكن المفارقة الأظهر أن الصين الشيوعية "هي اليوم المستفيد الأول من العولمة الرأسمالية. وإذا كان اقتصادها في فجر التسعينات يمثل نحو 7% من اقتصاد امريكا، فإنه يمثل اليوم نحو 70%. وتذهب بعض التقديرات الى أنه فوق ذلك، وتذهب أخرى إلى أنه سيكون الإقتصاد العالمي الأول بعد بضع سنوات. والغريب أن أمريكا فكرت في اواسط التسعينات في ضربة عسكرية للصين. كانت وقتها قادرة عليها بأخف الأضرار. لكن جملة من الحسابات دفعتها إلى خطة أخرى هي احتواء الصين احتواء اقتصاديا و ماليا. وقبلت الصين اللعبة. لكن مآلها ليس الاحتواء الذي خططت له أمريكا وإنما المنازعة والمنافسة والإتجاه إلى الندية .

انتبهت أمريكا إلى هذا المآل، واعتبر ساستها الصين عدوا. هي العدو الأول عند الجمهوريين قبل روسيا، وهي الثاني بعد روسيا عند الديمقراطيين. وكان موضوع تايوان هو القادح المباشر الذي صعّد العداوة بين البلدين لاسيما أن التصعيد الراهن زامن الحرب الروسية الأوكرانية. وبهذه السياسة الأمريكية المعادية لروسيا والصين، ازداد التقارب بين البلدين، وهما اليوم في شبه نحالف غير معلن رسميا. وإن تَمثِيلَهما للنواة الصلبة في مجموعة "بريكس" هو مظهر من مظاهر التحالف غير المعلن.

وإن مركز هذا التحالف هو الهدف المشترك بينهما وهو إزاحة أمريكا عن الأحادية القطبية في العالم. فساسة البلدين يعتبرون بلدَيهما حَرِيَّين بالاندراج في العالم قطبَين يضاهيان امريكا.

وإذا كانت روسيا تمثل في هذا الصراع دور الملاكم المثقف، فإنّ الصين تمارس دور التاجر الذي يتقن الحساب. ذلك أن الصين تساهم اليوم، ضمن "بريكس"، في المبادلات التجارية بالعملات المحلية، وإذا كانت تساهم بذلك في الحدّ من قطبية الدولار، بما هو الوجه النقدي من أحادية القطبية الأمريكية، فإن لها مع الدولار شأنا لافتا، وكذا مع "البيترودولار". فكيف ذلك؟.

للصين المرتبة الأولى من حيث التحوّز على الإحتياط من الدولار. وهي في مقدمة الدول المقتنية لسندات الخزانة الأمريكية. ولو سقط الدولار سقوطا سريعا مدويا، وهذا شبه مستحيل، لحلت الكارثة بالصين بعد أمريكا. لذلك تنتهج الصين خطة مدروسة للحد من هيمنة الدولار وللتّخفّف مما لديها منه. فهي تتاجر بعملتها وبعملات مجموعة "بريكس". وبهذه الخطة تتخلص بتدرج وحذر من احتياطيات الدولار التي لديها. ومن خططها في ذلك بيع السندات الأمريكية من دون تشدد. ومن ذلك استعمال الدولار في اقتناء الذهب واقتناء الإحتياط المهول من القمح. وكان ذلك سياسة الإقراض بالدولار للدول الأخرى، والقيام فيها بالاستثمارات العملاقة، لا سيما في مجالات الموانئ والبنى التحتية، على أن تكون لها حصص في تلك المشاريع أو الاستحواذ عليها في حال العجز عن التسديد. ومن ذلك شراء الأراضي لا سيما الساحلية لأغراض استثمارية وعسكرية، فضلا عن المشاريع الكبرى في أراضيها والتي يبدو بعضها مذهلا إنفاقا وإتقانا، الخ...

-ولإحداث ثغرة أولى في التلازم بين الدولار والبترول، تحتل الصين اليوم المنزلة الأولى في الصناعات الكهربائية، لا سيما السيارات. وبذلك، بقدر ما تقلل من الحاجة إلى البترول تقلل من الحاجة إلى رديفه؛ الدولار .

4 /التحديات الكثيرة

-جاء البيان الختامي لقمة بريكس بروسيا في 33 صفحة. وجاءت أبواب البيان معتدلة الأهداف. من ذلك مراجعة قواعد المنتظم الأممي، واحترام سيادة الدول، والكيل بمكيال واحد في القانون الدولي، وتعديل الأحادية القطبية، وأحقية العملات المحلية في التداول، ومساندة الصين على وجه الخصوص للسلام في فلسطين ولبنان الخ....ذلك أن البيان، لا يتجه بوضوح إلى إزاحة أمريكا أو عملتها عن النفوذ، وإنما يتجه إلى ألا يكون نفوذُهما مطلقَ الهيمنةِ أحاديَّها.

ولعل هذا الاعتدال الذي اختارته هذه القمة التي أغضبت أمريكا، يعود إلى وعي أصحابها بأن الأهداف الاستراتيجية الكبرى مازالت بعيدة المنال، وأنه تعترضها تحديات شتى. من ذلك أن دعائم النظام العالمي الحالي بعيدة عن التهاوي وإن اهتزت. ومن ذلك أن بعض الدول المشاركة في القمة إنما تحركها أهداف اقتصادية، لكنها شديدة الاتصال السياسي والاقتصادي بأمريكا. وخير مثال الهند. ومن ذلك أن بين بعض دول بريكس أو الدول المشاركة في القمة نزاعات قديمة وأخرى قائمة إلى اليوم، نحو ما بين الصين والهند، وما بين الهند وباكستان، وما بين تركيا وإيران ومصر رغم الهدوء السائد اليوم ، وما بين مصر وأثيوبيا الخ... وإن أمريكا قد تغذي هذه الفتائل عند الاقتضاء فتنقدح، أو تحدث شروخا في "بريكس".

لكن الأكيد هو أن استمرار التماسك الروسي الصيني، ووصوله مرحلة التحالف والتكامل، سيغير وجه النظام العالمي، لا سيما أنه نظام فقد، والدولَ الفاعلة فيه، الرصيد الأخلاقي.

الحرب على غزة:

إسرائيل تريد إكمال مهمة بدأتها واشنطن بعد أحداث 11 سبتمبر 2001

جوناثان كوك

مارينز في العراق بعد احتلاله

مع توسع الصراع في الشرق الأوسط، يرفض القادة الغربيون تطبيق أي خطوط حمراء على تل أبيب

قبل ما يقرب من عقد من الزمان، كشف لي أحد أبرز نشطاء حقوق الإنسان الإسرائيليين عن محادثة خاصة أجراها قبل فترة وجيزة مع أحد سفراء أوروبا لدى إسرائيل. وقد أصابته الصدمة مما سمع.

كانت دولة السفير آنذاك تعتبر على نطاق واسع واحدة من أكثر الدول الغربية تعاطفاً مع الشعب الفلسطيني. وكان الناشط الإسرائيلي قد أعرب عن مخاوفه إزاء تقاعس أوروبا في مواجهة الهجمات الإسرائيلية المتواصلة على الحقوق الفلسطينية والانتهاكات المنهجية للقانون الدولي.

وفي ذلك الوقت، كانت إسرائيل تفرض حصاراً طويلاً على غزة ، مما حرم أكثر من مليوني شخص هناك من أساسيات الحياة، كما قصفت المناطق الحضرية مراراً وتكراراً، مما أسفر عن مقتل مئات المدنيين.

وفي الضفة الغربية المحتلة والقدس الشرقية، كثفت إسرائيل من توسيع المستوطنات اليهودية غير القانونية، مما أدى إلى تصاعد العنف من جانب ميليشيات المستوطنين والجيش الإسرائيلي. وتعرض الفلسطينيون للقتل والتهجير من أراضيهم.

ووجه الناشط سؤالا بسيطا للسفير: ماذا يتعين على إسرائيل أن تفعل حتى تتحرك حكومته ضدها؟ وأين الخط الأحمر؟

توقف السفير للحظة وهو يفكر ملياً، ثم رد وهو يهز كتفيه: ليس بوسع إسرائيل أن تفعل شيئاً. وليس هناك خط أحمر.

قبل عقد من الزمان، ربما كان من الممكن تفسير هذا التعليق على أنه مراوغ. ولكن بعد مرور عام على محو إسرائيل لغزة، يبدو هذا التعليق أشبه بنبوءة.

لا يوجد خط أحمر. والأهم من ذلك أنه لم يكن هناك خط أحمر قط. وقد دارت هذه المحادثة قبل سنوات عديدة من السابع من أكتوبر 2023، عندما انفجرت حماس في غزة وقتلت أكثر من ألف إسرائيلي.

إن هذا التاريخ ليس نقطة التحول أو القطيعة التي يتم تصويره بها عالميا.

لا شك أن هروب حماس القصير من سجن غزة أثار رغبة متفجرة في الانتقام بين الإسرائيليين، الذين اعتادوا على قدرتهم على إخضاع الشعب الفلسطيني وسلبه ممتلكاته دون تكلفة.

ولكن الأهم من ذلك أن هذه الحرب قدمت ذريعة لقادة إسرائيل لمحو غزة ــ لتنفيذ خطة طالما خططوا لها. وعلى نحو مماثل، قدمت الحرب للدول الغربية الذريعة التي كانت في احتياج إليها للوقوف إلى جانب إسرائيل وتبرير وحشيتها باعتبارها "حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها".

عرض رعب

إن الأحداث التي شهدتها غزة على مدى الاثني عشر شهراً الماضية يمكن أن نطلق عليها ما شئت: الدفاع عن النفس، أو المذبحة الجماعية، أ " الإبادة الجماعية المحتملة"، مثلما وصفتها أعلى محكمة في العالم. ولكن ما لا جدال فيه هو أن ما حدث كان عرضاً مرعباً.

في الشهرين الأولين فقط، دمرت إسرائيل أجزاء من غزة أكثر مما دمرت قوات الحلفاء في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية بأكملها. كما نفذت إسرائيل غارات جوية على غزة أكثر مما نفذت الولايات المتحدة وانقلترا ضد تنظيم الدولة الإسلامية على مدى ثلاث سنوات في العراق.

وتشير الأرقام الرسمية إلى أن إسرائيل قتلت حتى الآن أكثر من 42 ألف فلسطيني في غزة ــ أكثر من نصفهم من النساء والأطفال ــ من خلال القصف المتواصل والعشوائي للقطاع الصغير المكتظ بالسكان.

ولكن عدد القتلى الحقيقي أعلى من ذلك بكثير. فقد فقدت غزة، التي قصفها العدوان الإسرائيلي وحولها إلى 42 مليون طن من الأنقاض، القدرة على إحصاء قتلاها وجرحاها منذ عدة أشهر.

في جويلية، نشرت مجلة لانسيت الطبية رسالة ذكرت أن الرقم أعلى من ذلك بكثير. وباستخدام تقنيات النمذجة القياسية، والاستعانة ببيانات من الحروب السابقة التي دمرت فيها مناطق حضرية مكتظة بالسكان، خلص فريق من الخبراء إلى أن حصيلة القتلى في غزة ستقترب كثيرا من 200 ألف قتيل، استنادا إلى معايير متحفظة.

وهذا يعني أن نحو 10% من سكان غزة سيقتلون مباشرة بالقنابل الإسرائيلية، أو يختفون تحت الأنقاض، أو يموتون بسبب حالات طبية لا يمكن علاجها، أو يموتون من سوء التغذية الشامل بعد عام من الحصار الإسرائيلي على الغذاء والماء والوقود على غرار الحصار الذي فرضته إسرائيل في العصور الوسطى.

وتبدو إسرائيل متأكدة من عدم وجود خطوط حمراء، ونتيجة لهذا فإن الأمور ازدادت سوءا منذ رسالة لانسيت.

وفي سبتمبر، انخفضت شحنات الغذاء والمساعدات إلى غزة إلى أدنى مستوى لها في سبعة أشهر، وفقا لأرقام الأمم المتحدة وإسرائيل.

وبعبارة أخرى، فإن قبضة إسرائيل الخانقة على المساعدات المقدمة لسكان غزة الجوعى اشتدت في الواقع منذ شهر ماي، عندما طلب كريم خان، المدعي العام البريطاني في المحكمة الجنائية الدولية، إصدار مذكرات اعتقال بحق رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو ووزير الدفاع يوآف غالانت بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية.

وكانت إحدى التهم الرئيسية الموجهة إليهما هي استخدامهما التجويع كسلاح في الحرب.

إن القادة الإسرائيليين واثقون للغاية من أن الولايات المتحدة وأوروبا تحميان ظهورهم، لدرجة أن السلطات العسكرية الإسرائيلية منعت في الأيام الأخيرة قوافل المساعدات التي تستأجرها الأمم المتحدة من دخول غزة، وفقاً لتقرير نشرته وكالة رويترز.

ومن الواضح أن نتنياهو لا يشعر بالقلق بشأن جره إلى قفص الاتهام أمام محكمة جرائم الحرب في لاهاي في أي وقت قريب.

على طريق الحرب

إن الافتقار التام للمساءلة من جانب مراكز القوة ــ من السياسيين الغربيين، ووسائل الإعلام الغربية، والمحاكم العالمية ــ هو الذي مهد الطريق أمام إسرائيل لتصعيد سفك الدماء ليشمل الآن الضفة الغربية المحتلة، ولبنان، واليمن، وسوريا.

إن مسرح الحرب الإسرائيلي يتوسع بسرعة ليشمل إيران بالكامل أيضاً.

لقد اندلعت بالفعل حرب إقليمية غير معلنة، ويتزايد خطر توسع هذه الحرب إلى حرب عالمية ــ ومعها كل المخاطر الكامنة في المواجهة النووية. ولكن لماذا؟

بالنسبة للمدافعين عن إسرائيل ــ وهي المجموعة التي تضم المؤسسة الغربية بأكملها، على ما يبدو ــ فإن الرواية بسيطة، رغم أنها نادرا ما يتم التعبير عنها بوضوح لأن مقدماتها العنصرية يصعب تفويتها.

ولكي يشعر الإسرائيليون بالأمان من جديد، يتعين على إسرائيل أن تعيد تأكيد قوتها الرادعة العسكرية من خلال سحق حماس وأنصارها في غزة. ولتحقيق هذه الغاية، يتعين على إسرائيل أيضاً أن تتصدى لأولئك الذين يرفضون الخضوع للتفوق الحضاري الإسرائيلي ــ وبالتالي الغربي ــ في المنطقة الأوسع نطاقاً.

إن شعار إسرائيل والمدافعين عنها هو "خفض التصعيد من خلال التصعيد". وبتعبير أكثر صراحة، فإن هذه السياسة هي سياسة استعمارية محدثة تتلخص في "إخضاع المتوحشين".

إن منتقدي إسرائيل ـ الذين تم إسكاتهم الآن باعتبارهم "معادين للسامية" ـ يؤكدون أن الإسرائيليين لن يتمكنوا أبداً من تحقيق الأمن من خلال العدوان العسكري فقط وليس الحلول الدبلوماسية. فالعنف يولد المزيد من العنف. والواقع أن عقوداً من العنف البنيوي الذي مارسته إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني بأكمله قادتنا إلى هذه النقطة.

"صراع الحضارات"

لكن هذا لا يشكل إلا نصف الطريق لفهم المشكلة.

صحيح أن إسرائيل تبدو الآن عازمة على إنهاء المهمة التي بدأتها في عام 1948 المتمثلة في القضاء على الشعب الفلسطيني ـــ السكان الأصليين الذين كان مشروعها الاستعماري الاستيطاني المدعوم من الغرب يقوم على إزالتهم. ولكن في الواقع، لم يعد بوسعها أن تفعل ذلك.

لقد فشلت إسرائيل مرارا وتكرارا في تطهير فلسطين التاريخية عرقيا، في حين أن الموقف البديل ـــ عقود من حكم الفصل العنصري ـــ لا يمكن أبدا أن يكون أكثر من مجرد إجراء احترازي، كما أثبتت تجربة جنوب أفريقيا.

والآن، مسلحة بأحداث السابع من أكتوبر كذريعة، شرعت إسرائيل في تنفيذ برنامج إبادة جماعية؛ أولا في غزة، وإذا نجحت في الإفلات من العقاب، فسوف تبدأ قريبا في الضفة الغربية المحتلة.

لكن إسرائيل كانت لديها منذ فترة طويلة طموحات أعظم من ذلك بكثير ـــ طموح تسعى الآن إلى تحقيقه بقدر أكبر من الجدية.

قبل أكثر من عشرين عاماً، استولت مجموعة من الأيديولوجيين المتطرفين المعروفين بالمحافظين الجدد على زمام المبادرة في مجال السياسة الخارجية أثناء رئاسة جورج دبليو بوش. ومنذ ذلك الحين، تحولوا إلى نخبة دائمة في مجال السياسة الخارجية في واشنطن، أياً كانت الإدارة التي تتولى السلطة.

إن ما يميز المحافظين الجدد هو مركزية إسرائيل في نظرتهم للعالم. فهم ينظرون إلى التفوق اليهودي الإسرائيلي والعسكرة الإسرائيلية باعتبارهما نموذجاً للغرب ـــ نموذجاً يعود فيه الغرب إلى التفوق الأبيض والعسكرة بلا خجل في روح استعمارية منتعشة.

وكما هي الحال مع إسرائيل، ينظر المحافظون الجدد إلى العالم باعتباره صراعاً لا ينتهي بين الحضارات ضد ما يسمى بالعالم الإسلامي. وفي هذا السياق، يصبح القانون الدولي عقبة أمام انتصار الغرب، بدلاً من أن يكون ضماناً للنظام العالمي.

فضلاً عن ذلك فإن المحافظين الجدد ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها كبش الفداء الذي سيمكن الولايات المتحدة من إبقاء سيطرتها على الشؤون الدولية في الشرق الأوسط، مصدر النفط الرئيسي في العالم. وتشكل إسرائيل جوهر سياسة واشنطن الرامية إلى فرض هيمنتها العالمية على كافة الأصعدة.

لقد كان المحافظون الجدد مقتنعين منذ فترة طويلة باستراتيجية إسرائيل لتحقيق مثل هذه الهيمنة في الشرق الأوسط: من خلال تقسيمه إلى أجزاء. وكان الهدف من ذلك هو المطالبة بالخضوع التام لإسرائيل، مع معاقبة أي مصدر للمعارضة، فضلاً عن سحق الهياكل الاجتماعية التي تدعمها وتحويلها إلى أنقاض.

إن كل هذا ليس بالأمر الجديد. فكما تتذرع إسرائيل حالياً بذريعة السابع من أكتوبر لتبرير هجومها العنيف، استغل المحافظون الجدد في وقت سابق تدمير تنظيم القاعدة لبرجي التجارة العالميين في نيويورك في باعتباره فرصة لهم "لإعادة تشكيل الشرق الأوسط".

في عام 2007، روى القائد السابق لحلف شمال الأطلسي ويسلي كلارك عن اجتماع عقد في البنتاغون بعد وقت قصير من الغزو الأمريكي لأفغانستان. وقال له أحد الضباط : "سنهاجم وندمر الحكومات في سبع دول في غضون خمس سنوات. سنبدأ بالعراق، ثم ننتقل إلى سوريا ولبنان وليبيا والصومال والسودان وإيران".

وأضاف كلارك عن المحافظين الجدد: "كانوا يريدون منا زعزعة استقرار الشرق الأوسط، وتحويله رأساً على عقب، وجعله تحت سيطرتنا".

وكما وثقت في كتابي الصادر عام 2008 بعنوان "إسرائيل وصراع الحضارات" ، كان من المفترض أن تنفذ إسرائيل جزءاً أساسياً من خطة واشنطن لمرحلة ما بعد العراق، بدءاً بالحرب على لبنان في عام 2006. وكان من المفترض أن يؤدي الهجوم الإسرائيلي هناك إلى جر سوريا وإيران، مما يعطي الولايات المتحدة ذريعة لتوسيع نطاق الحرب. ولكن في نهاية المطاف، لم يكن هذا هو الحال.

وهذا ما كانت تعنيه وزيرة الخارجية الأمريكية في ذلك الوقت، كوندوليزا رايس، عندما تحدثت عن "آلام ولادة الشرق الأوسط الجديد".

ولكن الخطة فشلت إلى حد كبير لأن إسرائيل تعثرت في المرحلة الأولى في لبنان. فقد قصفت إسرائيل مدناً مثل بيروت بقنابل زودتها بها الولايات المتحدة، ولكن جنودها واجهوا صعوبة في مواجهة حزب الله في غزو برّي لجنوب لبنان.

وبعد ذلك، وجد الغرب طرقاً أخرى للتعامل مع سوريا وليبيا.

إلى النهاية المريرة

والآن عدنا إلى حيث بدأنا، بعد مرور ما يقرب من عشرين عاماً. وكانت إسرائيل وحزب الله وإيران تستعد للجولة الثانية.

إن الهدف الغربي الإسرائيلي، كما كان الحال من قبل، هو تدمير لبنان وإيران، تماماً كما تم تدمير غزة. والهدف هو تحطيم البنية الأساسية في لبنان وإيران، ومؤسسات الحكم فيهما، وبنيتهما الاجتماعية. وهو يهدف إلى دفع الشعبين اللبناني والإيراني إلى حالة بدائية، حيث لا يستطيعان أن يتماسكا إلا في وحدات قبلية بسيطة، ويقاتلان فيما بينهما من أجل الحصول على الضروريات الأساسية.

ولكن ليس هناك أي دليل على أن هذا الهدف أصبح قابلاً للتحقيق اليوم أكثر مما كان عليه قبل عقدين من الزمن.

حتى المتحدث العسكري الإسرائيلي الأعلى، دانييل هاغاري، اضطر إلى الاعتراف : "أي شخص يعتقد أننا قادرون على القضاء على حماس فهو مخطئ".

بالنسبة لإسرائيل والولايات المتحدة، لا توجد خطوط حمراء. وينطبق الأمر نفسه على العواصم الأوروبية التي يبدو أنها مستعدة لمواصلة هذا النهج حتى النهاية.

دمار رهيب في غزة

الشارع المغاربي
تصدر عن شركة «كوثر العالمية للاتصال»
شركة محدودة المسؤولية

المؤسسة والمديرة المسؤولة
كوثر زنطور

مستشاران لدى إدارة التحرير
برتبة رئيس تحرير :
معز زيّود - الحبيب القيزاني

كتّاب افتتاحيات :
الصادق بلعيد - حمادي بن جاءبالله - عز الدين سعيدان - نائلة السليني - ألفة يوسف - خالد عبيد - جمال الدين العويديدي- عبد الواحد المكني - رفيق بوجدارية - أحمد بن مصطفى - فوزي البدوي - زهير بن يوسف - مولدي الاحمر

مستشارو التحرير :
صالح مصباح - صلاح بوزيان - أنس الشابي - نهلة عنان - مسعود رمضاني - أسعد جمعة - عامر الجريدي

الملحق الثقافي :
منير الفلاّح - عواطف البلدي

الفريق الثقافي :
زهير بن يوسف - عبد الوهاب البراهمي - محمد الكحلاوي - أنور الشعافي - رضا القلال - الطيب الطويلي - هيام الفرشيشي - شفيع بالزين - علاء الدين السعيدي - خليل ڤويعة - الحبيب بيدة - محمد رضا البقلوطي - صالح السويسي - بهيجة بالربيع بنرقية

الريبورتاجات :
محمد الجلالي

التحرير :
منى المساكني - خالد النوري - تميم أولاد سعد - كريمة السعداوي - ياسين بيّوض

الشارع القضائي :
لطفي واجه

المدير الفنّي :
فيصل بن البشير

مكلفة بمهمة لدى إدارة التحرير:
هيفاء بن محمد

العنوان :
45 شارع آلان سافاري - 1002 تونس
الهاتف : 034 063 36 الفاكس : 065 890 71
www.acharaa.com
contact@acharaa.com

المطبعة: BETA i@beta.com.tn

رفض جورجي

في حوار أجرته معه قناة Imedi الجورجية أسرّ Bidzina Ivanishvili رئيس حزب «حلم جورجي» بأن موظفا غربيا رفيع المستوى أوعز لرئيس جورجيا السابق IRAKLI GARIBASHVILI بشن حرب على روسيا لبضعة أيام تكون متبوعة بحرب عصابات.

وحسب Ivanishvili جاء الايعاز الأمريكي في ظرف كانت التوترات العالمية شديدة وأن رئيس الوزراء آنذاك سأل الموظف الغربي كيف يخطر على بال جورجيا أن تخوض حربا ضدّ روسيا وكم يتصور أن يصمد جيش بلاده ملاحظا أن ردّ الموظف الغربي كان أنه يتوجب على جيش جورجيا الصمود لمدة 3 أو 4 أيام.

وتابع Ivanishvili أن رئيس الوزراء سأل بعد ذلك الموظف الغربي : «يعني أنه لا يهمكم تدمير جورجيا وسقوط قتلى في صفوف جيشها وسكانها في ظرف 3 أو 4 أيام؟» متابعا : «كان ردّ الموظف الغربي : تعداد سكان بلادكم 3 أو 4 ملايين ثم أن الروس لن يتمكنوا من قتل كل السكان في 3 أو 4 أيام وبعد ذلك بإمكانكم اطلاق حرب عصابات انطلاقا من الغابات وسنمدّ لكم يد المساعدة وسيكون بإمكانكم مواصلة الحرب».

ولاحظ Ivanishvili أن حكومة بلاده أدركت منذ ذلك الحين نوايا الدول الغربية وأنها ردّت بحزم على اقتراحات مماثلة.

يذكر أن السلطات الجورجية كانت قد كشفت أن الولايات المتحدة حاولت عبر اتصالات سرية بالحكومة الجورجية الحالية فتح «جبهة ثانية» ضد روسيا من جورجيا لتكثيف الضغط على روسيا في إطار الحرب الدائرة بأوكرانيا.

معتقلات في قطاع غزة

صحيفة «يديعوت أحرونوت» كشفت في عددها الصادر يوم 22 أكتوبر الجاري أنه من المنتظر أن تصادق حكومة نتنياهو على خط لإقامة معتقلات في قطاع غزة تحت اشراف مرتزقة تابعين لشركة أمن خاصة وذلك بقيادة قادة قوات خاصة.

الصحيفة أوضحت أن الشركة المعنية بالخطة هي شركة الأمن الامريكية GDC وأنه سيتم تكليف الجيش الإسرائيلي بتطهير المعتقلات من مقاتلي «حماس» وبناء حائط فصل حولها مشيرة الى

أنه لن يسمح بدخول المعتقلات إلاّ الى المقيمين بها بعد خضوعهم الى تحقق بيومتري من هوياتهم يمكنهم من الحصول على الطعام والماء.

دان كوهين، مراسلة الصحيفة بأمريكا أكدت في مقالها أن الرئيس بايدن صادق على نشر 1000 مرتزق خاص كوّنتهم المخابرات الامريكية CIA في اطار مخطط أمريكي إسرائيلي لتحويل انقاض الدمار الذي خلّفه القصف الإسرائيلي الى ما يشبه قرية مراقبة بأحدث الوسائل التكنولوجية.

وأضافت «يديعوت أحرونوت» أن شركة GDC تعمل تحت قيادة رجل الأعمال الإسرائيلي – الأمريكي «موتي كاهان» مشيرة الى أنه عمل سابقا بالمخابرات الإسرائيلية خلال العدوان على سوريا لتمويل وتموين المجموعات المتطرفة المنعوتة بالمتمردين التي تبحث عن قلب نظام الرئيس تشار الأسد.

وتابعت الصحيفة أن شركة GDC شاركت في العديد من الحروب التي شنتها الدول الغربية خصوصا في أفغانستان والعراق وأوكرانيا وأنها تنشط في 100 دولة وتشغّل أكثر من 14000 مرتزق.

ولفتت الصحيفة الى أنه سيتم تجسيم المخطط بشمال غزة في مرحلة أولى قبل أن يشمل محور نتزاريم وسط القطاع ثم ممرّ فيلادلفيا على الحدود المصرية.

سيناريو مرعب

تحقيق أجرته أسبوعية Wired الامريكية المتخصصة في ابراز تداعيات التكنولوجيات الحديثة على ميادين الثقافة والاقتصاد والسياسة والتي تصدر عن مجمع كوندي ناس للصحافة حذّر ممّا أسماه سيناريو مرعب نتيجة الإمكانيات الكبيرة التي بات الذكاء الاصطناعي يسمح باستغلالها لتحقيق إنجازات لا تخطر على بال خصوصا إذا كان بين أياد خبيثة.

التحقيق أشار الى أنه أصبح بإمكان عصابات اجرام استغلال إمكانيات الذكاء الاصطناعي حتى لخلع ملابس أي انسان وجعله عريانا وذلك بفضل لمسات بسيطة على الكمبيوتر.

التحقيق أكد أن تقنية الذكاء الاصطناعي باتت تسمح بإنتاج صور وفيديوهات مفبركة يظهر فيها أشخاص عراة تماما أو حتى بصدد القيام بممارسات غير أخلاقية.

الصحيفة نقلت عن اختصاصي في دراسة «الأكاذيب الكبيرة» يدعى Henry Ajder تعبيره عن انشغاله من تزايد عدد الأشخاص الذين يمارسون لعبة الفبركة ويتقاسمون محتويات أعمالهم على مواقع التواصل الاجتماعي وتنبيهه الى خطر تدمير حياة الكثير من الناس وخصوصا منهم الفتيات والنساء المتزوجات.

ولاحظ الرجل أن أخطر ما في الأمر هو تركيز ما أسماها بعصابات اجرام على افتعال أفلام بورنوغرافية حتى لمشاهير هوليوود أو عالم السياسة وذلك بهدف ابتزازهم.

معاملة بالمثل

أنتون سيلوانوف، وزير المالية الروسي أكد يوم 24 أكتوبر الجاري عزم بلاده على تطبيق مبدإ المعاملة بالمثل مشيرا الى أن وزارته ستردّ بمصادرة أصول شركات ومنظمات معادية لبلاده واستثمار فوائدها وذلك بعد إعلانه عن تجميد أصولها مشيرا إلى أنه يمكن استغلال فوائدها للاستجابة لحاجات اقتصاد بلاده.

قرار سيلوانوف جاء اثر مصادقة البرلمان الأوروبي على امداد أوكرانيا بـ 35 مليار أورو مموّلة أساسا من فوائد الأصول الروسية المجمدة منذ فيفري 2022 في اطار العقوبات التي فرضتها الدول الغربية على روسيا نتيجة اجتياح قواتها أوكرانيا.

وقد جمدت دول الاتحاد الأوروبي وكندا والولايات المتحدة واليابان نحو 300 مليار دولار روسية يتصرف فيها ينك Euroclear المختص في استقطاب الودائع والكائن بالعاصمة البلجيكية بروكسيل.

وحسب فاليري أوربان مدير البنك المذكور ولّدت الأصول الروسية المجمدة الى حدّ الآن فوائد بـ 4،4 مليارات أورو.

دقت ساعة المحاسبة

موقع Africanews ذكر أنه في خضمّ قمة دول الكومنويلث المنعقدة بجزيرة ساموا الواقعة بالمحيط الهادئ أعلنت عدة دول افريقية وأخرى تابعة لمنطقة بحر الكاريبي عن نيتها اطلاق حوار حول التعويض عن الأضرار التي لحقت بشعوبها نتيجة سياسة الاستعباد التي مارسها ضدّها الانقليز على امتداد عقود.

وحسب الموقع تأمل الدول في اعتراف لندن بالوقائع المنسوبة اليها مع تقديم اعتذار عن ذلك والقبول بدفع تعويضات عن المآسي التي تسببت

فيها سياساها لعديد العائلات والقبائل.

لكن – يضيف الموقع – يبدو ان لندن غير مستعدة للخوض في الموضوع بدليل أن رئيس الوزراء البريطاني كاير ستارمر صرّح بأن القضية غير مدرجة بجدول أعمال القمة.

الموقع تابع بأنه بالإضافة الى التعويضات التي تطالب بها تأمل الدول المشار اليها في اعتراف انقلترا بتورطها في أزمة التغيرات المناخية.

يذكر أنه بين القرنين 15 و19 تم اختطاف ونقل نحو 12،5 مليون افريقي بالقوة على متن بواخر أوروبية ليتم بعد ذلك بيعهم كعبيد في مستوطنات انقلترا بأمريكا وفي جزر الكاراييب.

نائبة لرئيسة البرلمان الأوروبي :
تزعجك كوفية في الجلسة ولا تزعجك إبادة جماعية؟!

مجلة «ميم... مرآتنا» بثت مقطع فيديو ظهرت فيه نائبة أوروبية تلوم وتؤنب خلال مداخلة قصيرة لها رئيسة البرلمان الأوروبي على موقفها الداعم لإسرائيل بشكل أعمى.

النائبة التي تكلمت بلغة اسبانية قالت لرئيسة البرلمان الأوروبي التي عبرت عن امتعاضها وانزعاجها من حمل بعض النواب الكوفية تضامنا مع أهالي غزة : «شكرا سيدتي الرئيسة... المفوض... الزملاء... السيدة المفوضة... التحدث عن غزة بالطريقة التي تفعلون هو حماية لدولة إسرائيل وللابادة الجماعية الإسرائيلية.. السيدة المفوضة عندما تقتل دولة مجرمة أكثر من 41 ألف شخص نصفهم أطفال وعندما تدمّر 60 ٪ من المنازل و85 ٪ من المدارس و65 ٪ من الطرقات وعندما تهجّر أكثر من 80 ٪ من السكان وتمنع دخول الماء والطاقة والأدوية والمساعدات الإنسانية فإن الأمر لا يتعلق بحرب.. انها إبادة جماعية... إبادة جماعية لم تكن ممكنة إلا بتواطؤ الولايات المتحدة وأوروبا اللتين تقدمان الدعم الاقتصادي والعسكري والسياسي للقتلة... لا أعرف إن كنتم تدركون حجم النفاق والبؤس والانحطاط السياسي سيدتي الرئيسة الذي ينطوي عليه انزعاجكم من أن تحمل زميلتنا «ريما» كوفية في الجلسة العامة أكثر مما تنزعجون من تواطؤنا في إبادة جماعية ضد الشعب الفلسطيني... لماذا لا تمارسون حظرا كاملا على الأسلحة؟ لماذا تحافظون على الاتفاقيات الاقتصادية والتجارية مع القتلة... لماذا تموّلون نظام الفصل العنصري.. لماذا لا ترفعون أمر نتنياهو الى القضاء؟ لماذا تجرّمون حركة التضامن مع فلسطين؟... انظروا... اليوم نشر وزير الصحة في غزة قائمة بأسماء 41 ألف قتيل.. هذا لا يمثل الا النصف... السيدات والسادة الأشخاص الذين أعمارهم تحت سن 29 قتلوا... الى متى يستمر هذا؟ السيدة المفوضة توقفوا عن مساعدة إسرائيل على ارتكاب هذه الإبادة الجماعية».

ليلة هوليوودية في الشرق الأوسط

نبيه البرجي

ليلة هوليوودية في الشرق الأوسط. الاخراج أمريكي والتنفيذ «اسرائيلي». القنوات التلفزيونية الأمريكية التي لفتت انتباهها دقة السيناريو، تساءلت عما اذا كنا أمام مسرحية هزلية من النوع الذي يعرض عادة في «بيفرلي هيلز»، أم أنه كرنفال يكشف دقة اللحظة الاستراتيجية سواء في الولايات المتحدة أم في «اسرائيل»؟

حتى الساعة الأخيرة، كان الأمريكيون يشككون في التزام بنيامين نتنياهو بالضربة المحدودة، ليبدو من جهة أن أمريكا (البنتاغون بصورة خاصة) ما زالت تؤثر في السياسات «الاسرائيلية»، ومن جهة أخرى أن نتنياهو لا يزال يحتفظ بشخصيته البهلوانية. المشهد في منتهى الوضوح، الرجل يواجه مأزقاً حقيقياً في جنوب لبنان.

كل ما يحدث على الأرض يفاجئ ويصدم القيادة السياسية والقيادة العسكرية في «تل أبيب». سلسلة طويلة ومعقدة من محاولات الاختراق على جبهة تمتد 75 كيلومتراً، ليواجه الغزاة برجال المقاومة يخرجون من خنادقهم. في غزة قيل ان المقاتلين يخرجون من قبورهم.

بالرغم من كل ذلك الخراب الذي ضرب كل أشياء الحياة، وبالرغم من ذلك العدد من الضحايا، لكأن الناس تغتسل من اليأس الذي أصابها لدى اغتيال حسن نصر الله. ما يحدث في الجنوب يثير الذهول، كما يثير هلع الجنود «الاسرائيليين» الذين يهربون من المواجهة. الكثيرون منهم اشتكوا من أن «القيادة تركتنا لنعود جثثاً الى أمهاتنا».

العالم كان يظن، بعد انطلاق نحو 100 طائرة «اسرائيلية» (انه الكرنفال فعلاً) باتجاه ايران، أن ليلة الجمعة – السبت ستكون شبيهة بما فعل الأمريكيون في طوكيو ليلة 10 مارس 1945، حين أغارت 300 طائرة أمريكية على المدينة بالقنابل الحارقة، ليظهر أن ليلة طوكيو لم تكن أقل هولاً من ليلة هيروشيما.

المشهد هنا كان مختلفاً. لم تقترب أية طائرة «اسرائيلية» من الأجواء الايرانية، ولم تقترب أية قنبلة لا من المنشآت النووية، ولا من المنشآت النفطية، ليس لأن الأمريكيين يريدون الابقاء على النظام في ايران، وهم الذين يعتبرون أن الثورة دخلت في شيخوخة وفي ترهل، ولا بد من ان تسقط من الداخل، ومع اعتبار حدة الاحتقان الاقتصادي هناك، وان كان واضحاً أن اختيار مسعود بزشكيان كان لتغيير الكثير من المفاهيم ومن الرهانات، باتجاه نظرة جديدة الى الأفق.

لو ضُرب أي من تلك المنشآت بالصورة التي تزعزع النظام، لكان الرد في منتهى الشدة (لاحظتم التعاليق الايرانية الهادئة). واذ لا يستطيع «الاسرائيليون» استيعاب مثل ذلك الرد، كان لا بد أن تكون الضربة النووية، ما يعني دخول الشرق الأوسط في خراب دمار العالم.

وراء الضوء يُحكى عن «الصفقة الأمريكية ـ الايرانية»، والى حد القول ان الايرانيين الذين «باعوا «حزب الله» عسكرياً يستعدون لبيعه سياسياً». هذا ليس صحيحا. المعلومات الموثوقة أن طهران ضاعفت اهتمامها بالحزب وعلى المستويات كافة، وقد فاجأ الداخل والخارج بأنه استعاد ديناميته في سرعة قياسية، بعد تلك الصدمات المتتالية التي بدا في وقت من الأوقات، أنها لن تقلب المشهد اللبناني فقط راساً على عقب، بل المشهد الشرق أوسطي أيضاً...

ثمة شيء ما سيتغير. تركيا وقطر تضغطان على حماس لابرام صفقة الرهائن ووقف إطلاق النار. هذا حتماً له انعكاساته على لبنان، بعدما بدا أن الضربة «الاسرائيلية» جزء من السيناريو اياه، وببدء التقهقر «الاسرائيلي» في الجنوب اللبناني.

هذا لا يحد من حال التوجس مما يتم اعداده للداخل اللبناني. الكثير يحكى عن الانتشار العملاني لـ «الموساد» في البلد، تزامناً مع الحديث عن الفتن المتنقلة التي، من الطبيعي أن تكون المدخل الى ما هو أكثر خطورة بكثير. ولكن، بعد تجربة بعض القوى اللبنانية مع «اسرائيل» خلال السبعينات والثمانينات من القرن الفائت، يبدو أن الخيار «الاسرائيلي» هو في الاغتيالات.

مَن راهنوا على ضرب المقاومة من الداخل، وقد وصل بهم الرهان إلى حد تسمية رئيس الجمهورية العتيد وكذلك رئيس الحكومة، يتحدثون عن العين «الاسرائيلية» الحمراء في اتجاه الرئيس نبيه بري، الذي اذا غاب عن المسرح السياسي، بعد غياب الأمين العام لحزب الله، ضاعت المقاومة، وتفرق أنصارها أيدي سبأ.

كثيرون في هذه الأيام أيديهم على قلوبهم...

الشارع الثقافي

العدد 428 - من الثلاثاء 29 أكتوبر إلى الاثنين 4 نوفمبر 2024 - الموقع الالكتروني www.acharaa.com- البريد الالكتروني : maghrebstreet@gmail.com

مجلة «الأكاديمية التونسية» الصادرة عن «بيت الحكمة» :

مبادرة فكرية تستعيد دور الفكر في صياغة السرديات الكبرى

بقلم : عواطف البلدي

حيوية المشهد التشكيلي في مؤلف «الطبيعة في الفن» للباحث والأكاديمي خليل قويعة

بقلم : مهدي غلاّب

مرافئ

على هامش تكريم الاستاذ عبد المجيد الشرفي بالمغرب

أضواء على الخصوصيّة العلميّة للدّرس الحضاري

بقلم: محمّد الكحلاوي

عن الدخيل المهضوم في قاموس الشعب التونسي

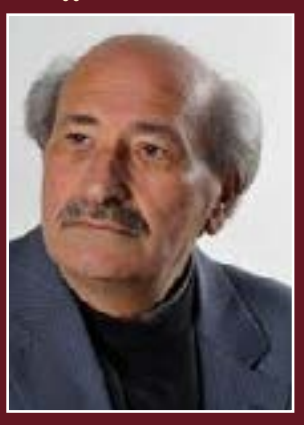

بقلم :
المنصف المزغني

«في معرفة السّبيل إلى الفلسفة لغير الفلاسفة»

لويس ألتوسير
ترجمة : عبد الوهاب البراهمي

مسرحية «ماسح الأحذية»

نجاح جماهيري وفني وصرخة فزع من أجل إنقاذ الانسانية

وقفة

ألوان الأدب والدراما والفرجة في الضمار التونسي

بقلم : د. صالح بن رمضان

رأي

التفكير الايتيقى والجمالى في التغطية الاعلامية لدفن الموتى

بقلم : نوفل حنفى

وقفة

ألوان الأدب والدراما والفرجة في الضمار التونسي

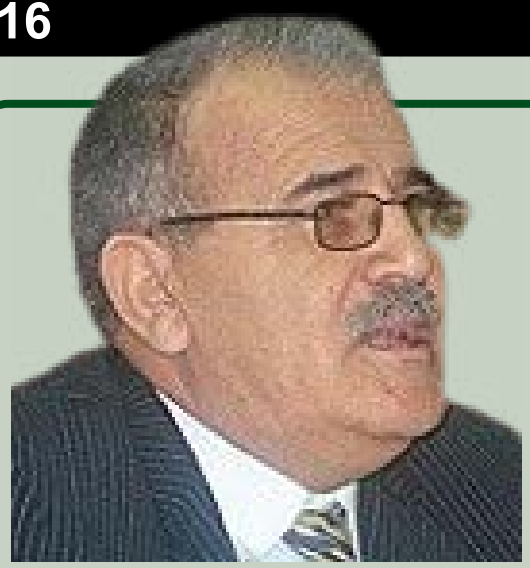

بقلم : د. صالح بن رمضان

في عصرٍ يفتح للصمت معابر الزحف على مختلف مظاهر التواصل الحيّ، ويحاصر فضاءات التفاعل التخاطبي البليغ فتكتسح الصورة ووجوه التلقّي السلبي حقول الحياة الاجتماعيّة والثقافيّة فتُصحِّرها ويصيبها الفتور الذي هو شرٌّ من الصمت، في عصر كهذا يحتاج المرء إلى التذكير بأحد أبعاد إنسانيّة الإنسان وهو ما نسمّيه في تونس الضمار. ولعلّه من المفيد أن نذكّر أوّلا بأنّ الضمار مفهوم يعسر تعريفه أو حدّه، بصرف النظر عن أصل العبارة، فهو كلمة واصفة لمقوّم من مقوّمات التمدّن البشري، ولبعدٍ من أبعاد الأُنس الاجتماعي ولآلة من آلات ترويض التوحّش، وتدجين العواطف الهائجة الـمُتَنَرْجِسَة، وتمرير الأفكار الصعبة، ومحاصرة الأفكار السلبيّة، شأنها في ذلك شأن مفاهيم كثيرة مجاورة لها كالطرافة والملاحة والظّرف واللّباقة والكياسة والطّيب بلغة شيخ الإنسانيّات الجاحظ، والتنبير- وهو نوع من الضمار يوجّهه صاحبه إلى التعليق على الأحداث والمواقف وغيرها- أو المفاهيم الأخرى كالسعادة والتشاؤم والتفاؤل والبؤس. فالتمدّن هو الذي يوجّه الإنسان إلى مقاومة بلادة الحياة وعنفها ومحاولة التغلّب على تكاليف البؤس اليومي بما يسمّى عندنا الضمار، وهو روح البذخ البلاغي ونواة من نواتات الفنّ ومساءلة الواقع أو السائد.

فإذا تناولنا الضمار من جهة أدب الطبائع وأصولها أو تركيب النفس ومنازع السلوك ومن جهة الصفات العصبيّة فإنّنا نراه فنّا من أفنان الذكاء التواصلي وشعبة من شُعب الفطنة، وحسن استعمال الذاكرة التمثيليّة أو التصوّرية في الأخذ برقيق حواشي الكلام حسب المقام، فهو المادة الروحيّة أو المعنويّة ووقود تلك الذاكرة، ونعدّه كذلك مكوّنا من مكوّنات الشخصية في هيئتها وفي مزاجها وسلوكها وانفعالاتها، وأخلاطها المطبوعة ورؤيتها للعالم وللأشياء وللآخر. وهذا المكوّن الأوّل هو معيار التمييز بين الضامر حقّا والذي يتكلّف الضمار ويتعمّله تعمّلا ثقيلا فاشلا مهما تكن مكتسباته الموضوعيّة في فنون الهزل والإضحاك ونحو ذلك، وإنْ كنّا نقرّ بأنّ الضمار في كثير من الأحيان قناع اجتماعي تختفي وراءه شخصيّة هشّة بائسة معذّبة متشائمة وهو منزع أطنبت في تحليله دراسات كثيرة، وبيّنت أنّ الطريف من الناس في الأقوال والمواقف وردود الأفعال ليس بالضرورة شخا سعيدا متوازنا في أعماق نفسه.

وإذا نظرنا إلى الضمار من الناحية اللسانيّة التداوليّة يمكن أن نعدّه كفاية تواصليّة عالية يتمتّع بها المتخاطبون بالعرف الاجتماعي نفسه، وهي تحتاج في الإنجاز إلى مراعاة أنظمة شتّى من الأعراف المحلّية في مجال التندّر والإضحاك ولطيف الإشارات والأحوال والمواقف ومقاومة التوتّر الاجتماعي والتعالي على رتابة الحياة، وتبديد القحط النفسي وكسر حلقة المعيش الفارغة. وهو إذا تصفّحناه من زاوية التخلّق الجيني والنظرية السلوكيّة نراه نشاطا من أنشطة العقل يعمل بواسطة اللغة خاصة على مقاومة الضغط النفسي والعصبي، ويدعم مناعة الجسد والصحة النفسيّة، هذه المناعة التي أبدع التونسي في التحذير من فقدانها جرّاء التواصل غير المتكافئ بين أطراف الحوار حين قال : كلامك مع اُلِـّي ما يفهمكش ينقّص في الأعمار . فنحن نرى في الضمار طاقة حيويّة وقدرة على إنتاج الأشكال التواصليّة الطريفة الكيّسة، التي يمكن أن نرتّبها في سلّم تصاعدي نذكر من درجاته أوّلا ردود الأفعال القوليّة البسيطة التي تظهر من خلالها قدرة المتكلّم العادي على إجراء قوانين التلاعب بالمجاز وتصريف الكنايات والاستعارات: قال له ساخرا: إنْتُوما سِرْك فأجابه: والسّرك فيه صيودهْ، وكانت الإجابة هذه تحدّيا للمخاطب من خلال معنى مضمَّن في القول لم يقرأ له حسابا، ويصبح الضمار تحريرا مطّردا للمعاني. وهو يتحقّق كذلك بضروب التورية وجناس القلب والملاحن التي توجّه أغراض الكلام المختلفة، أو مباغتة المتكلّم بالعودة إلى الحقيقة دون احتفال بالمجاز الذي عقد عليه كلامه كقول العمّة صفيّة حين كانت طفلة فقد سألها والدها معاتبا وهي مستلقية على فراشها تشاكس أخاها: آشْ حاطّهْ تحت راسِك يا طفلهْ ؟ فقالت بمنتهى الارتخاء ورباطة الجأش: مخدّة، فضحك وذهب ما تصنّعه من وقار، وكقول الجريدي وقد قال له أحدهم مَكْبِرْ كلامكم يا الجريديّة فقال: أُوه أُوه شُفْتِشْ لا كلمه هازِّينْها على جمل؟ أو قوله مجيبا على سؤال مخاطبٍ بالهاتف: مْنينْ تكلِّم فيَّ؟ فقال له: من فُمّي. ويكون الضمار جوابا مسكتا أو نوعا من المشاكسة المرحة، ففي حوارٍ ضمن ما يسمّى بالميكرو تروتْوار سأل المنشّط بائع خضار في سوق من أسواق حاضرة تونس كيف الحال؟ فأجابه نحن في الوسط بين سوقين لذلك ترى نشاط البيع والشراء ضعيفا، فأجابه المنشّط ولكنْ في كرة القدم الوسط هو الذي يستأثر باللعب.

وربما استعمل المتكلّم المفارقة دون وعي نظري فكان ذلك سرّ الضمار، وقد تُساق في جملة بسيطة كقولنا في مدح شخص تكلّم فأوجز: ماقَصّرْتِشْ ما طوّلْتِشْ.

ويمكن أن تصاغ منها نادرة سردية بكسر أفق التوقّع كحديث تلك العجوز التي كانت تختلف إلى المستشفى للتسلية ولتبادل الأحاديث مع النسوة لا غير، ثم إنها غابت أياما ولما عادت سألوها عن سرّ غيابها فقالت كنت مْرَيْضَهْ. ثم نأتي إلى الضمار الفني والأدبي الذي يمثّل مذهبا في إنشاء الخطاب يتطلّب تطويرا لطاقة الذكاء التواصلي أو ثقافة بلاغيّة ودربة فنيّة على إجراء الضمار والتفكّه كإنتاج الأشكال القوليّة الساخرة بالاستناد إلى قوانين المفارقة والمحاكاة ، وتقليد الأساليب، والمفاجأة المكبوتة، والمدح الذي يراد به الذمّ والعكس... ويظهر هذا الضمار في أجناس خِطابيّة وأدبيّة مختلفة كالصحافة الهزليّة في صحف من قبيل «الفرْزَزّو» للهادي العبيدي، و«المضحك» و«النديم» و«السردوك» و«النمس» وغيرها من الصحف، وفي الشعر الفكاهي عند حسين الجزيري وفي شعر الشّنيْ (الهجاء)، والعكس (الفار يجري ورا القطّوس) وفي الأزجال عند علي الدوعاجي والأغنية الهزليّة عند صالح الخميسي والجراري والسملالي خاصة، والنوادر والطرف والملح. وربما ارتقى الضمار إلى إنتاج أفانين الحوار والوصف في الأشكال الفنيّة الفرجويّة كالسكاتِش (نصر الدين بن مختار- حمّادي غوّار) والمسرح (كلام الليل) والوان مان شُو والقلابس والمسلسلات الهزليّة (شخصية شناب) وغيرها من ألوان الأدب والدراما والفرجة التي يصنعها الضمار التونسي.

وقد ألمح التونسي في بلاغته اليوميّة إلى سوء استعمال الضمار، وإلى الخيط الرفيع بين الطرافة والضمار من جهة وعدم مراعاة المقام أو تكلّف الطرافة والنّبز والتهرديز من جهة أخرى فرفض الضمار في غير محلّه، وكأنما بات عنده من الكلمات الأضداد فقال: تْسَيِّبْ في الضمار؟ مَضْمْرِك، مَلاَّ ضْمارْ، بِزّي مِضّْمارْ، فأبان عن حسّ مرهف بأنّ الضمار تعاقد اجتماعي وذوقي، ولطفٌ في التواصل مرهف، وبأنه ينبغي أن نميّزه من التفاهة والتهريج والإضحاك الفجّ أو التجريح والذمّ والتعريض ورخو الكلام وغيرها مما يتنافى ووظائف الضمار الاجتماعيّة. ويمكن أخيرا أن يصبح الضمار رافدا من روافد النقد السياسي والاجتماعي ومن التعامل الإشكالي مع القيم السائدة، باستعمال الرمز والتلميح والتضخيم والكاريكاتور والسخرية السوداء وغيرها من أشكال النقد (حربوشه لمحمد قـلـبي). وتظلّ بعد كلّ هذا نجاعة الضمار وحرارته في عامة الأحوال رهين سياق الاستعمال وطاقة التلقّي وربما كان أفضل المتلقّين من يفهم عالرّمَشْ، وقديما قال الجاحظ في البيان والتبيين «يكفي من حظّ البلاغة (...) ألاّ يُؤتَى الناطق من سوء فهم السامع».

مجلة «الأكاديمية التونسية» الصادرة عن «بيت الحكمة» :

مبادرة فكرية تستعيد دور الفكر في صياغة السرديات الكبرى

عواطف البلدي

في لحظة تاريخية تتشابك فيها الأحداث وتتباين الرؤى، أطلق المجمع التونسي للآداب والفنون «بيت الحكمة» العدد الأول من مجلته الفكرية «الاكاديمية التونسية». رقمية سداسية أشرف على إعدادها المفكر المختص في الحضارة الدكتور المنصف بن عبد الجليل وأحد أعضاء بيت الحكمة القارين. كما سهرت على تحريرها نخبة من أفضل الأقلام الاكاديمية والفكرية على غرار الدكاترة عبد المجيد الشرفي وفوزي البدوي وعياض ابن عاشور ومحمد حسين فنطر والمنصف الوهايبي ومحمد المحجوب وعلي اللواتي وغيرهم من القامات الفكرية والأكاديمية المشهود لها بالكفاءة في مجال تخصصها.

في 145 صفحة وبغلاف بسيط حمل صورة «قاعة العرش»، وهي قاعة ببيت الحكمة وفيها تحديدا تم التوقيع على وثيقة الاستقلال الداخلي لتونس سنة 1954، وبمحتوى غاية في العمق والاهمّية، احتفى العدد الأول بفلسطين، كرمزً للهوية والنضال الإنسانيين، ومرآة لتحديات الواقع العربي المعاصر.

لم يكن هذا العدد مجرد إصدار ثقافي، بل مبادرة فكرية تستعيد دور الفكر في صياغة السرديات الكبرى، تلك السرديات التي تتجاوز الأبعاد السياسية لتغوص في الأعماق التاريخية، الفكرية، الفلسفية، والثقافية لقضية فلسطين.

ويقارب هذا العدد قضية فلسطين من زوايا متعددة، تتقاطع فيها الدراسات الأكاديمية مع التحليل الفلسفي والنقد الثقافي، ليقدم للقارئ نخبة من البحوث والدراسات التي لا تكتفي بالسطحيات أو بالتكرار المألوف، بل تتبنى رؤية تجديدية عميقة تستند إلى تاريخ طويل من التفاعل مع القضية الفلسطينية.

تضم المجلة مقالات حول فلسطين بوصفها أكثر من جغرافيا؛ بل كفضاء مفاهيمي مفتوح على تفسيرات متعددة، بدءًا من الرواية التاريخية وصراع السرديات، مرورًا بتفكيك الاستعمار وامتداداته الثقافية، وصولًا إلى آفاق المقاومة الحضارية.

في هذا العدد، حوار بين الفكر والتاريخ، حيث يلتقي مفكرون بارزون من مختلف المشارب الفكرية لاستنطاق اللحظة الفلسطينية من زوايا فلسفية وإنسانية جديدة. وتتنوع الدراسات بين تناول العلاقة الجدلية بين الهوية والمقاومة، وبين قراءة لتاريخ فلسطين بوصفه سجلًا حيًّا للصراع الثقافي والاستعماري. كذلك يفتح العدد نافذة على الإنتاج الثقافي المكتوب حول فلسطين، حيث تُستعرض الإبداعات الأدبية والفنية باعتبارها شكلاً آخر من أشكال المقاومة فحضر الراحل محمد الغزي بقصائده. وجمع علي اللواتي جميل الكلام وأعذبه في نص شعري نثري أبدع في نظمه.

«الاكاديمية التونسية» إصدار تأسس على رؤية علمية فلسفية ومعرفية تستدعي ضرورة إعادة التفكير في فلسطين بعيدًا عن القوالب الجاهزة، مقدمًا فرصة للمثقفين والباحثين للتفاعل مع القضية الفلسطينية عبر زوايا غير تقليدية، تتطلب التأمل والتعمق في أبعادها

المتعددة. ويأتي هذا العدد تأكيدًا على أن فلسطين ليست مجرد قضية سياسية أو نزاع حدود، بل هي عنوان لصراع أكبر بين القوى التي تحاول طمس التاريخ وتغيير هوية المنطقة.

عدد اكتملت فيه كل مناحي الفكر والادب والثقافة في ابهى حلة حيث توفرت فيها كل اسباب التفرد باعتبار انها ومثلما أسلفنا الذكر ضمت أسماء وقامات فكرية وثقافية ونخبة مجمع بيت الحكمة. ولكن أيضا لأنها اختارت في أولى أعدادها الاشتغال على أسمى وأقدس القضايا الكبرى «قضية فلسطين».

ومن يتصفح صفحات هذه المجلة لا يمكن له الا ان يقف امامها في اعجاب بها واكبارا لمناحيها جميعا حتى انه لا يدري ايها يأخذ وأيها يدع وايها يفصل باعتبار ان كل مقالاتها ذات قيمة وذات ومرجع خاصة في كل ما يهم القضية الفلسطينية تحليلا وتفسيرا ونقدا وكتابة واضافت الينا الكثير في هذا الجانب. كما لم تفلت المجلة التي اشرف على اخراجها بهذا المحتوى العميق والجاد الدكتور منصف بن عبد الجليل وهو من هو في الكتابة وفي ابتكار الاساليب الجميلة التي تضمنت دقائق المعاني والمغازي «طوفان الأقصى» حيث اختارت النخبة المشاركة فيها كل حسب اختصاصه عددا من المواضيع على غرار الاستاذ فوزي البدوي الذي كتب مقالا بعنوان «في الصلات بين هرتزل والصهيونية المسيحية» وكتب الدكتور المعز الوهايبي «فلسطين فلسفيا». اما المفكر عبد المجيد الشرفي فكتب مقالا عنونه بـ «مفاتيح لفهم الصراع في فلسطين». وخصص العدد حوارا للفلسطيني د. طلال أبو غزالة»

المشرف على المجلة د. منصف بن عبد الجليل

اجراه المفكر المنصف بن عبد الجليل الذي كتب بدوره افتتاحية حول رؤية المجلة وطموحها في «ان تكون نتاجا من صميم الرؤية التونسية المنخرطة في عقلانية المعارف وان تستلهم من ارثنا المتنوع ما يناسب شواغلنا اليوم». إضافة الى مقالات لا تقل أهمية وقيمة عن المقالات المذكورة في التاريخ والاثار والعلوم والآداب والفنون الفلسطينية.

طرحت المجلة أسئلة ولكنها لم تكتف بالإجابة وانما انشغلت بتوفير «سقفٍ قلقٍ» نقف تحته لنُديمَ وابلَ المخاوف من مواجهةِ السؤالِ نَفسِه، أسئلةٍ قد تفتح اعيننا على فهم العالم من خلال القضية الفلسطينية برؤيةٍ فاحصةٍ وراصدةٍ لمحنةِ الوجودِ الإنساني في غزّة وخارجها. رؤيةٌ تخلطُ الانساني بالفكري في استبصارٍ معرفي اكاديمي وفلسفي لا يُخفي رفضه الشديد لكل مبتذَلٍ، ولا يهادنُ في طرح رؤياه «.. أسئلة لا تنتهي اذ من المنتظر ان تطرح المجلة في عددها الثاني الذي سيصدر خلال ديسمبر القادم سؤال «هل تنحصر الحداثة في الغرب؟» لتفتح أعيننا على حداثة اللاحداثة واللانسانية التي تشدق بها الغرب طيلة عقود طويلة.

ان قراءة مجلة «الاكاديمية التونسية» أشبه بـ«تجوال بين أخاديد حادَّة»، ما جعل من كتاباتها تتخذ طابعًا اكاديميا مرَّة، واستكمالاً لما بُتر من كتابات وتحاليل الصحف والمواقع الإعلامية حول «طوفان الأقصى».

عدد أول يطمح إلى إحياء دور النخب الفكرية في دعم القضية الفلسطينية، وإلى توفير منصة حوارية تسهم في تعزيز الإدراك الجمعي بأهمية الحفاظ على الهوية الثقافية والحضارية لفلسطين، بما يتجاوز المواقف الآنية ويضع أسسًا فكرية للمستقبل.

التفكير الايتيقى والجمالى في التغطية الاعلامية لدفن الموتى

نوفل حنفى

هل يمكن للصحفي أن يُجري حوارًا صحفيًا مصورًا أثناء موكب دفن الموتى؟ هل ثمة مشروعية ايتيقية وجمالية لاستجواب الآخرين أثناء موكب جنائزي؟ تلك هي الأسئلة المحرجة التي تبادرت إلى ذهني حينما شدني مشهد استغلال بعض الصحفيين لموكب دفن رجل الإعلام الموهوب جميل الدخلاوي من أجل القيام بحوار صحفي يرونه مناسبًا للتفاعل مع أهمية الحدث الذي شهد وفاة واحد من أكثر رجال الإعلام كفاءة في تونس.

يعتبر المدافعون عن إمكانية إجراء حوار صحفي داخل موكب الجنازة أن هناك تبريرات ايتيقية وجمالية تسمح بذلك، مثل احترام الاستقلالية الفردية، وبناء ذاكرة جماعية، والتطهير العاطفي، والأصالة الجمالية، متجاهلين الإحراجات الفلسفية المرتبطة بانتهاك كرامة الإنسان، وانتهاك الخصوصية، واضطراب الفضاء الحميمي المخصص للجنازة، وتجميل الموت.

أما الموقف النقدي الذي يرفض هذه الممارسة الإعلامية فعادة ما يركز على احترام كرامة الإنسان، وحماية الخصوصية، والحفاظ على الصمت داخل الموكب، وأصالة المشاعر، متجاهلًا العديد من الإحراجات المرتبطة بالرقابة العاطفية على حرية العمل الصحفي، وعدم وجود شفافية إعلامية، وفقدان فرصة لتجميل عواطف الحزن، وجعل المعاناة الإنسانية غير مرئية. وهو ما يُحيرنا ويحثنا على التفكير في المشروعية الايتيقية والجمالية للتغطية الإعلامية للجنازة، وإمكانية القيام بحوار صحفي مع أحد أفراد العائلة الدموية أو المهنية للفقيد.

قد يعتبر الصحفي الذي تجرأ على القيام بحوار صحفي داخل موكب الجنازة، وكذلك الرئيس المدير العام للتلفزة الوطنية التونسية الذي وافق على الحوار معه حول وفاة الصحفي الكبير جميل الدخلاوي، أن هناك مبررات ايتيقية وجمالية تسمح له بالقيام بذلك. ويرون أنه ليس هناك أي داعٍ لتهويل الأمور والإصرار على الرقابة الأخلاقية على العمل الصحفي، وأن هناك مشروعية ايتيقية وجمالية لعمله الصحفي داخل موكب الجنازة، خاصة إذا وافقت عائلة الفقيد على ذلك.

أولا: المشروعية الايتيقية والجمالية :

1.المبررات الايتيقية:

1.1 احترام الحق في التعبير عن المشاعر:

يرغب بعض الأشخاص الحاضرين في موكب الجنازة في التعبير العلني عن مشاعرهم ومشاركة أفكارهم أو ذكرياتهم عن الفقيد. وهنا يمكن للصحفي تبرير تدخله من خلال احترام هذا الحق في التعبير، مُشيرًا إلى أن إعطاء صوت لأولئك الذين يرغبون في التحدث لا يتعارض مع الاحترام والانفتاح، طالما يتم ذلك بموافقتهم الصريحة. كما يُمكن الإشارة إلى أهمية تيسير هذا التعبير العاطفي باعتباره جزءًا من عملية الحداد والتعامل مع الفقد، كما يتناولها Clifford G. Christians في كتابه Media Ethics: Cases and Moral Reasoning، الذي نُشر من قبل دار النشر Pearson في عام 2011.

2 البعد الإنساني والاجتماعي

يمكن أن ننطلق من بعض المبررات الايتيقية التي تفهم الحوار الصحفي على أنه تسليط الضوء على البعد الإنساني والاجتماعي للموت، وذلك من خلال إبراز الروابط العاطفية والاجتماعية. يمكن النظر إلى هذا النهج باعتباره وسيلة لتكريم ذاكرة الفقيد من خلال إظهار التأثير الذي تركه في مجالات الصحافة والمجتمع والإنسانية، وإضفاء البعد الانسانى للحدث أمام جمهور أوسع. كما يتناول ذلك روجر سيلفرستون في كتابه Why Study the Media?، الذي نُشر في لندن عن دار نشر SAGE في عام 1999

3 ايتيقا الشهادة الجماعية

إن السماح للأقارب أو أصدقاء الفقيد بالإدلاء بشهاداتهم يمكن أن ينطلق من «واجب الذاكرة»، الذي يمكن أن يسهم في بناء «ذاكرة جماعية» تخلد صفات الفقيد الذي تميز بقوة نصوصه وعذوبة صوته ومساهمته التاريخية في تطوير المشهد الإعلامي. وهو أمر حيوي في الطقوس الجنائزية، كما تشير باربي زليزر في كتابها Journalism and the Holocaust، الذي نُشر في لندن عن دار نشر Cambridge University Press عام 2001. وهنا يمكن للصحفي تبرير عمله، الذي استهجنه العديد من المواطنين، بالحاجة إلى توفير منصة لأفراد المجتمع من أجل التعبير عن مشاعرهم وفقدانهم الجماعي لأحد أهم الصحفيين الذين عرفتهم تونس، مما يعزز التماسك الاجتماعي والتضامن المهني، على الأقل بين الصحافيين.

2.المبررات الجمالية:

1.2 أما على الصعيد الجمالي، فيمكن تبرير هذه الممارسة الإعلامية من خلال العودة إلى فكرة التعبير العلني والعمومي عن الألم داخل الحوار الصحفي في سياق جنائزي. حيث يعتبر ذلك شكلاً من أشكال التطهير النفسي للأفراد الذين يتحاور معهم الصحفي وللجمهور الذي يستمع إليهم، كما تشير مارثا نوسباوم في كتابها The Fragility of Goodness: Luck and Ethics in Greek Tragedy and Philosophy، الذي نُشر عن دار Cambridge University Press عام 1986. ويمكن لهذه الفكرة أن تجد جذورها في التراجيديا اليونانية، حيث كان يُنظر إلى التعبير عن المشاعر العميقة وتجسيدها على المسرح كوسيلة للتطهير العاطفي.

2. 2. كما يمكن تبرير هذه الممارسة الصحفية من الناحية الجمالية من خلال البحث عن شكل «خام ومباشر من الحقيقة الإنسانية». تُعتبر هذه «الحقيقة العاطفية جميلة» (L'esthétique de la vérité) في صدقها وأصالتها، حيث يلتقطها الصحفي بطريقة «غير مصطنعة في لحظة استثنائية من لحظات الهشاشة البشرية». ويمكن أن يُنظر إلى توثيق هذه المشاعر على أنه تجسيد لجمالية الواقع، حيث يكمن الجمال في الأصالة (La beauté de l'authenticité) التي لا تظهر إلا في حالات الحزن والموت، كما تشير سوزان سونتاغ في كتابها On Photography، الذي نُشر عن دار Farrar, Straus and Giroux عام 1977.

2. 3 لقد تطرق كل من رولان بارت (Roland Barthes) وسوزان سونتاغ (Susan Sontag) إلى فكرة هامة وهي أن «تجميل الأحداث المأساوية»، رغم المخاطر المرتبطة به، يمكن أن يكون له تأثير كبير في تخليد واجب تذكر الثقافة ورموزها. وقد حللت زليزر (Zelizer, 2001) هذا المفهوم من خلال إظهار قدرة السرد البصري والعاطفي للصحفيين على المساهمة في نقش هذه الأحداث داخل الذاكرة العامة، رغم أن ذلك يمكن أن يثير في الوقت نفسه العديد من التساؤلات الأخلاقية حول حدود هذه المقاربة وإمكانية انزلاقها إلى العديد من المؤاخذات الأخلاقية والجمالية التي ترفض النشاط الصحفي داخل موكب دفن الموتى.

ثانيا : نقد المشروعية الايتيقية والجمالية

1.المشاكل الايتيقية :

1. 1 انتهاك كرامة الإنسان

يُعتبر استجواب الأشخاص المفجوعين انتهاكًا لكرامتهم الإنسانية. ففي عصر السبق الصحفي، يسعى العديد من الصحفيين إلى استغلال لحظات الهشاشة النفسية والإنسانية للحصول على

المعلومات التي لا يمكن سماعها في حالة التوازن النفسي والعاطفي للمنكوبين. وهذا يعني استغلال الآخرين واستخدامهم كوسائل لتحقيق غايات خارجية، وهو ما يتعارض مع الفلسفة الأخلاقية الواجبية الكانطية التي تركز على أهمية معاملة الأفراد كغايات في حد ذاتهم، وليس كوسائل لتحقيق غاية، مثل جمع المعلومات من أجل تقرير صحفي. (Kant, Emmanuel, Fondation de la métaphysique des mœurs, Traduction de Victor Delbos, Paris, Librairie Philosophique J. Vrin, 1947).

2 انتهاك خصوصية الآخرين

إن إجراء حوار صحفي مصور خلال حدث شخصي مثل موكب جنازة قد يُفسر على أنه تعدٍ على المجال الخاص. ويمكن أن نفسر ذلك بالعودة إلى فلسفة جون رولز، التي تدافع عن تعددية مفهوم الخير وعلى احترام الخصوصية باعتبارها شرطًا أساسيًا لتحقيق مجتمع عادل ومنظم بشكل جيد. يُعتبر احترام الحياة الخاصة أمرًا أساسيًا للحفاظ على العدالة والاستقرار الاجتماعيين، ويشدد رولز على أنه لكي يكون المجتمع عادلًا، يجب أن تحمي مؤسساته الأفراد من أي تدخل في حياتهم الشخصية، بما في ذلك خلال لحظات الحزن التي تكون غالبًا مصحوبة بهشاشة عاطفية ونفسية (Rawls, John. Théorie de la justice, Traduit par Catherine Audard, Paris, Éditions du Seuil, 1987).

يمكن اعتبار الحوار الصحفي أثناء الجنازة تجاوزًا ايتيقيا، حيث يفرض بعض الصحفيين حضور المجال العمومى داخل لحظات حميمة يُفترض أن تسودها الخصوصية والصمت والتكتم. كما تتطلب العدالة الاجتماعية احترام اختيار الأفراد في عيش بعض اللحظات الحميمة بعيدًا عن الأضواء العامة، مما يعزز بناء مجتمع يقوم على الاحترام المتبادل بين الجميع.

2.المشاكل الجمالية :

يُعتبر الموكب الجنائزي من الناحية الجمالية تعبيرًا رمزيًا يُشير إلى القطيعة بين الحياة والموت. وتُعتبر هذه اللحظة، في العديد من الثقافات، لحظة مقدسة، محاطة بالإيماءات والكلمات والطقوس التي تحمل دلالات رمزية عميقة. وبالتالى، فإن مقاطعة هذا السياق من خلال إجراء حوار صحفي يُعد تخريبًا لاستمرارية هذا «المشهد» الطقوسي. كما يُعتبر هذا الحوار الصحفي بمثابة تعبير عن جمالية الرعب (esthétique du macabre)، حيث يتجاوز رعب الفعل الصحفي نفسه خطورة الحدث الأليم.

يبدو أن هذه الممارسة الصحفية غير متوافقة مع جدية اللحظة ووقارها، ومع «جمالية الاحترام» التي يتطلبها هذا النوع من المواقف. وقد تُعتبر هذه التصرفات، من وجهة نظر فنية، شكلًا من أشكال الابتذال والانحطاط الذوقي، الذي يدينه منظرو الجماليات مثل أدورنو أو بنيامين، من حيث أنها تمثل ضياعًا لهالة المقدس داخل الحداثة.

1 اضطراب فضاء موكب الدفن:

يؤدي إجراء لقاء صحفي أثناء موكب جنازة إلى كسر التناغم والصمت الجمالي المقدس للحظة. يرى رولان بارت أن الصمت وغياب التعبير عن الأحداث المأساوية يمكن أن يحمل أحيانًا شحنة جمالية أكبر من تدخل الكلمات أو الصور. يعتبر بارت في كتابه Camera Lucida: Reflections on Photography (1981) أن ما لا يُقال وما يظل غير مرئي يُعبّر في كثير من الأحيان عن قيمة جمالية وعاطفية أعمق من فائض الكلمات أو الصور الصريحة.

حسب رأيه، فإن هذا الغياب يخلق مساحة تتيح للمشاركين في الجنازة التعبير عن ذواتهم، وأن يشعروا بالفقد أو الحزن بطريقة شخصية، مما يجعلهم يرتبطون بالبعد الحميمي للتجربة الإنسانية. يلتقي بارت هنا مع التأملات الشاملة في الجماليات الوجودية، حيث يُنظر إلى الصمت على أنه جزء أساسي من الحالة الإنسانية، وهو وحده القادر على التعبير عما هو غير قابل للوصف وغير قابل للإمساك، بعمق يفوق ما يمكن أن تقدمه أي صورة مباشرة.

2.2 تجميل الم الموت:

يكمن الخطر الأساسي داخل الجنازة في «تجميل المعاناة الإنسانية» وتحويل الحزن والألم إلى موضوع للفرجة الإعلامية. يمكن أن يُفهم ذلك على أنه شكل من أشكال الاستغلال العاطفي، حيث تصبح المعاناة مادة استهلاكية مثل غيرها من المواد. وقد نقد غي ديبورد في كتابه La société du spectacle (1967) هذه الجمالية في تحليله لمجتمع الفرجة، حيث يتم تحويل الأحداث الحميمة إلى مجرد سلع تخضع لقانون العرض والطلب.

يعتبر ديبورد «الاستعراض الفرجوي» ليس مجرد مجموعة من الصور، بل هو رؤية للعالم توجه الإدراك والتفاعلات الإنسانية. يعرّف هذا الاستعراض بأنه بناء اجتماعي حيث «كل ما كان يُعاش مباشرة قد اختزل في مجرد تمثل». من هذا المنظور، لم يعد الألم ومشاعر الحداد تجارب شخصية، بل تحولت إلى تمثلات إعلامية، مما يؤدي إلى فقدان أصالتها وعمقها العاطفي. في سياق الجنازات، على سبيل المثال، قد تؤدي التغطية الإعلامية إلى تخفيف من أهمية الحدث، حيث يتم استبدال المعنى الشخصي والاجتماعي للحداد بمشهد استهلاكي وعرضي من أجل إرضاء الجمهور.

في المجمل، تكمن المعضلة في صعوبة الاختيار بين أطروحة احترام الكرامة الإنسانية المطلقة التي تفضل الصمت والخصوصية، وبين تبرير يستند إلى مفهوم الشفافية والذاكرة الجماعية. فإذا كان بإمكان الصحافة، في بعض الحالات، أن تسهم في واجب الإعلام وتطوير الذاكرة العمومية والتوعية الاجتماعية، فإن مقاربة متوازنة وحذرة تظل ضرورية كي لا يفقد الحدث معناه العميق وينزلق العمل الصحفي في خطر استغلال ألم الآخرين والمتاجرة بالحدث، وعدم مراعاة جمالية الاحترام ومراعاة الصمت الجمالي. إن هذا الطريق وعر، ويمثل طموحًا للتوفيق بين واجب إعلام الآخرين واحترام كرامة الأفراد.

صورة تتحدّث

«القلة»..

ثلاجة الفقراء وموروثهم الشعبي الذي لا يزال يقاوم الزمن

أعتاد الكثير من الناس في فصل الصيف على شرب المياه من القُلّه لأنها تساعد في الحفاظ على برودة المياه فضلا على أن لها بعض الفوائد الصحّيّه للجسم ك :

ـــ التقليل من الحموضة لأن جسم الأنسان حمضي بطبيعته وهاته الأواني الفخاريّه تجعل الماء قلويّا ’(Une eau alcaline)

مما يساعد في خلق توازن مناسب وتقليل مشاكل المعده

ـــ الأواني الفخاريه خاليه تماما من المواد الكيميائيه على عكس القوارير البلاستيكيه اللتي تحتوي على مواد مسرطنه عافانا وعافاكم الله

_ كذلك هاته الأواني الفخاريه تقوم بتصفية الماء بداخلها وتبعث فيه الحياة فتنتعش منه الأعضاء .

فاطمه ماطري، أخصائيه في علوم التغذيّه وحفظ الصّحّه.

لعبة المرايا المتعاكسة في رواية «متوحش هذا العالم» لريم العيساوي

هيام الفرشيشي

الكتابة مرآة لأفكار الكاتب، وأحاسيسه انعكاس لذاته. كلما تفحص نفسه بصورة أوسع حمل معه ماضيه ، ذاكرته ظلاله التي تتعقبه. وكلما شعر أن تشويها ما نغص على صورته، من زاوية معينة، وأثقله حمله أوجد له أكثر من قناع وشخصية ليسقطها عليه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه ليعري سطوته..

إن الواقع بنماذجه وشخصياته هو المرآة التي رأت فيها الكاتبة ريم العيساوي كل ما يعبر عن الاساءة والاضطهاد، في روايتها « متوحش هذا العالم». فما بالك إن كان هذا الواقع إنسانيا بشريا، إن كان عالما يكشف فيه الإنسان عن بعده المتوحش. تجاوزت من خلاله الكاتبة الخصوصية الثقافية لمجتمع بعينه إلى خصوصية الإنسان ذاته في كل مكان مهما تقنع بقيم الحضارة. فمن طبعه الاعتداء على الآخرين.. لتنقسم الشخصيات إلى شخصية معتدية، وأخرى مضطهدة، وما عليها وهي تواجه الجانب المتوحش غير مقاومة ما يشهره الأخير من سكين وردية حادة النصل. سكين لا تعكس نواياه الحقيقية من خلال لون وردي مزيف، فلونها الحقيقي دموي داكن يمتهن كرامة جسد الإنسان/ المرأة/. فالصورة الحقيقية تبدأ من التمعن في توحش العالم، ومدى تأثيره على الذات، بل مجموعة الذوات، فما بالك إن كانت ذات المرأة. إنها كتابة تعبر عن تضخم الشعور بالقهر، و تعدد صور القهر لتلمس وجود الشخصية الذاتي والاجتماعي وتدرك العالم المزيف.

مخطط السرد في الرواية

إن الكتابة عن هذا العالم المتوحش من خلال رواية «متوحش هذا العالم» تتشكل عبر مخطط سردي يشتت الانتباه بأحداثه المتداخلة وأفكار الراوية «سوسن» المشوشة، ولكنه بناء يدخل القارئ ويخرجه من خلال صورة «الشاب الأشقر « في بداية الرواية ونهايتها، فهو أول من يشحذ سير الأحداث وهو الذي ينهيها بطريقته الخاصة.. مخطط السرد ينطلق مع الموقف الأولي في الرواية عبر انتقال المرأة الستينية «سوسن» إلى سكن جديد بحي شعبي هو «حي العباسية». الشخصية امرأة مثقفة تقرأ كتاب معين بسيسو قبل النوم على ضوء السهارة إلى أن يباغتها النوم. الزمان ليلا. الحدث المباغت: شاب أشقر يقتحم غرفتها لاغتصابها بيده سكين، وتخرج المرأة

ريم العيساوي

ليلا بعد مقاومتها الاعتداء بملابس ممزقة نحو منزل حارس العمارة .. الحدث غير المتوقع إثر ذلك تمثل في الانعطافات التي تعيشها الشخصية إذ تفقد الذاكرة، ثم تفيق لتكتب رواية تستمد أحداثها من حوادث الاغتصاب في العراق أيام الغزو الأمريكي وصور الذاكرة المشوشة للشخصية.. الموقف الأخير في الرواية: تدعى «سوسن» لزفاف ابنة أخيها أميمة فتكتشف أن العريس هو الشاب الأشقر المعتدي.. ومن يكون الشاب الاشقر غير الآخر الذي يغتصب بلدانا وشعوبا ونساء مهما كانت عراقتها.

الحبكة الروائية تعكس تعقد حياة «سوسن».. صراعها ضد كل المنغصات الذكورية .. الأخ الذي أراد حرمانها من الدراسة بعد نجاحها في الإعدادية، ابن العم المتحرش، الخطيب فالزوج الانفعالي المستفز. الزوج الثاني الشرقي المتطلب ... ولكن مع ذلك سوسن تدرس وتبحث عن عمل لتعيل نفسها .. تتخرج وتشتغل بالتعليم، تتعلم قيادة السيارة. تسافر.. أي أنها تصارع وتتحدى رغم قسوة الشخصيات المحيطة بها. رغم المتحرشين بما فيهم الأطباء في الرواية..

مرايا الماضي والحاضر

الكتابة هي فن الذاكرة. الذاكرة ببعض الأحداث الراسخة الموشومة التي تظهر كلما وجدت موقفا يحاكيها من حيث مخلفاته الشعورية. وسوسن تفقد الذاكرة لشهرين ثم تستعيد الذاكرة وتنهض من غفوتها. لتعود إلى العالم الأثيري متمثلا في الكتب المرقونة، والأوراق المهملة الملوثة بالغبار، مراسلات صديقتها العراقية «سلمى الموصلي».. الكتابة تذكير بتوحش العالم ولكنها في ذات الوقت بلسم الجروح والعذابات. حيث أن الحاضر يواجه الماضي بكل ثقله ومخلفاته وانكساراته، والكتابة ترمم هذه الشروخ وتطهر النفس من بقايا أدرانها. المكاشفة ليست سهلة ولكن لها فوائدها فهي تخرج من الأزمات التي تضيق النفس، ترى العالم أكثر اتساعا وبالتالي إعادة تعديل مظهر الشخصية لتكون في أقوى حالاتها.. فاليقظة هي سرد مظاهر التوحش وحكايات الزمن اللامتناهية. لأن سوسن تبدو مصممة على استرجاع أحداث كثيرة أزعجتها ومست وجودها وكرامتها كامراة. وأحيانا تبادل الإهانة بالإهانة ليكون ردة فعل الآخر أكثر قسوة.. الشخصية تنظر لنفسها من الخلف لترى بعض اعوجاجها أيضا من خلال بعض تصرفاتها التي لم تعتمد العقل والرصانة مثل الذهاب مع ابن عمها لمنزله. حين تنظر الشخصية في المرآة فهي لا تريد أن ترى نفسها في أجمل الصور لترضي غرورها النرجسي.. بل ترى شحوبها أو آثار الزمن عليها فتصبح المرأة عاكسة لحالات متقلبة تعيشها.. وغالبا ما يكون التعامل مع المرأة من خلال الوجه لا القفا ولذلك تحتاج الشخصية لأكثر من مرآة لترى نفسها من الأمام والخلف. من خلال إثارة الفضول لرؤيتها تقوم بتوسيع الرؤية. لتنعكس صورتا الخارجية والداخلية بكل تفاصيلها. فيكون انعكاس الصورة الكلية ويكون الإدراك البصري أكثر إثارة للاهتمام. وعبر ارتباك الجسد والروح اعترافات رحلة أبدية نحو أعماق الذات والعالم مكشر عن أنيابه. فقدانها الذاكرة ليس للتخلص من الأشياء المكبوتة والصدمات، ولكن لكي تهدأ لبعض الوقت وتلقي بكل المكبوتات دفعة واحدة.

السرد طريقة واعية لفهم الادراك

انعكست في المرايا المتعاكسة لشخصية سوسن صورا عقلية واعية، مع خيال ابداعي لا يظهر الا على الورق. فقد ولدت في طاحونة الواقع المتوحش الذي يجب مواجهته ولا وقت للاسترخاء. فهي تستدعي الصور عن وعي وحين ترهقها وتستثقلها على القارئ تؤجلها لبعض الوقت ثم تعود اليها. فهي تكشف عنها بالتدريج. الغاية من

قراءة في كتاب

استرجاعها رؤية الواقع من خلال الماضي والحاضر معا لتفكيك الروابط بينهما. فهي ذاكرة الراوية، ذاكرة المجتمع، ذاكرة العالم. ومن الصعب تجميع خطوطها بطريقة منظمة فهي تواجه الشخصية على شكل مقاطع واجزاء كما في الاحلام تعيد تمثلها ضمن قصص اخرى متداخلة في فضاءات متعددة. فضاءات الذاكرة في تونس مع الزوج الاول، الرحلة إلى الإمارات والعودة الى تونس. وفي ذلك توسيع الرؤية للجسد بكل ازماته النفسية .. في المساحات التي أحاطت به.. ولكن اعادة سرد الاحداث تجعلها تخرج من قوقعتها ويمنحها فعل الكتابة الإحساس بالانفتاح على الآخر، ومشاركة القارئ لحكاياتها المبعثرة... وكلما تتسع المرايا تنبري الكثير من الأحداث الصادمة لسوسن. ترى نفسها من رأسها لأخمس قدميها: طفولة الضياع، الاخ الذي قسى وحاول إخراج اخته من الدراسة. الزوج الذي تركها في البحر بملابس السباحة وتحرشه بالفتيات والمعينات ابن العم الذي حاول استغلالها.. الزوج الثاني المتطلب الانفعالي..

كتابة الحياة

من يعرف الكاتبة ريم العيساوي عن قرب يلاحظ انعكاس الذات السردية في روايتها، وهي الظهور الانعكاسي للذات/ الأنا الذاتي. ليس فقط للراوية بل للكاتبة. فهي الجنوب. استاذة. أديبة. سافرت للشارقة. فهي تكشف عن الهوية الذاتية، التي تربط الصور والمواقف والقصص الشخصية للكاتبة ذاتها.

«السرد الشخصي» يعبر عن وعي الكاتبة بهويتها الشخصية و / أو هويتها الثقافية. من خلال بناء ذكريات السيرة الذاتية. من خلال صورها المنطبعة في الذّهن. ومن ثمة المرور من الذات الفردية إلى الذات السردية برصد الأفكار التي تتمثلها الكاتبة في المجتمع عن واقع امراة لها قصص داخلية محفوفة بالمعاناة جراء مزاج الرجل الشرقي وتعاليه عن المراة. ولكن المراة تستعيد الخيال الابداعي من خلال عمل ادبي به إسقاطات مجتمعها.. مع استخدام القصص والشخصيات لفحص حياة الإنسان وواقعه. بما في ذلك حلم شهرزاد التي طلبت منها أن تقص قصة نسيتها فجرزاد. مع تمكنها من آليات الكتابة. ففي ورقة من الذاكرة مع الأديب الراحل محمد العروسي المطوي رئيس نادي القصة أعطته دفتر قصصها. الكتابة خلاص من القيود. حضور عشرينية النادي عام 86. تحليل النصوص والدفاع عن الرأي. وهي امرأة تقرأ وتكتب تحت انعكاس ضوء السهارة الخافت والظلال العاتمة. واللحظات المسيطرة على الكتابة واقعة اغتصاب لامراة في سن ما بعد الستين . مع انها شرعت في كتابة الرواية قبل الاغتصاب من خلال الكوابيس. كوابيس مدينة الانسان الغريبة، قمم مبانيها الحادة، هندستها المتشابكة المخيفة، المتاهة التي تؤدي الى ادغال متوحشة وجدران تصد على الخروج، مواصلة الكتابة عن حرب الخليج.. رسائل سلمى الموصلي حالات الاغتصاب في العراق. الانتقال للمدينة في سن العاشرة التيه في مدينة مترامية الأطراف غريبة الوجوه.. مدينة يضطهد فيها الناس.. مدينة لم تهذب الغرائز. تعذب المعتقلين وتغتصبهم في العراق، مدينة جافة في ظل تواطؤ وصمت من الجهات الرسمية تخفي رأسها كالنعامة ... والكتابة.

تركت فيض المحبة في وادي الذهب بقريتها بعد وفاة والدها.. الكتابة مرتبطة بفتح النافذة شعاع الشمس يغمر الستار البرتقالي، الكتابة مخاض تذكرها بالمخاض في شتاء 72 القاسي. نافذة تطل على العالم. تلملم ما انكسر. من لامبلاة زوج يكسر الزجاج، آلة الخياطة. يطردها لتقضي ليلة ممطرة في مستودع السيارة. يقذف الطفل ورضاعته على الارض... الكتابة تنسج خيوط الايام منسوجة سريالية متشابكة . حقيبة الذاكرة رخيصة كحقيبة راقية من الجزائر التي اخطأت وجاءت لتونس لتضع مولودها خفية.. حوادث اغتصاب لامراة عجوز من شاب يافع امراة في قطار ليون، حصولها على الاعدادية ورفض اخيها مواصلتها الدراسة بعدما باع الميراث. تحبك ما تقطع من هذا العالم، تبحث عن عمل لتواصل دراستها. العمل في تعاضدية تجارية، مجابهة تحرش حمادي سكرتير تم التخلي عنه. سافرت لزوجها لباريس فحدثها عن علاقته بميشال. 30 جوان 94 انتقلت الى الشارقة لتتزوج من عربي مقيم بالسويد سوري شيعي قاس كالالماس. عالم النت المنتديات غريب مسكون بروح الشر المخزونة في نفوس الناس. الرواية تحكي قصص سوسن وبعض القصص الفرعية.. المرأة والسكران الذي سقط في البالوعة ..

القصص المتفرقة تثير الصور في الذاكرة .. أحيانا نبحث عن الرابط. إذ لا يوجد تسلسل زمني للأحداث. تلتزم الساردة بخطاب يتلاعب بالقصة عند استفاقتها من الغيبوبة. يشير الخطاب أيضًا إلى جميع المواد التي اضافتها المؤلفة إلى الرواية: والشعر لتشمل التأطير، والقطع.. الومضات الورائية ...

الخاتمة

هل يمكن الحديث عن الوظائف الاجتماعية للسرد، عن المعنى الثقافي للرواية القابلة للسرد ضمن بيئة ثقافية عربية فحسب، بما انها تعالج عالم المدينة الملوث المتوحش؟ هي مرتبة بطريقة إدراكها من طرف الراوية وكيفية سردها للحكاية من خلال تعدد البيئات والأمكنة في الرواية، وتعدد الصور مع صوت فردي يتنقل من مكان إلى مكان ومن شخصية إلى شخصية.. السكن الجديد في حي العباسية قدمت من الجنوب الى العاصمة من العاصمة الى الضاحية من الضاحية الى الجبل الى فرنسا ثم الامارات...

التذكر الفردي حافز للتذكر الجماعي؟

صورة تتحدّث

محمود السهيلي

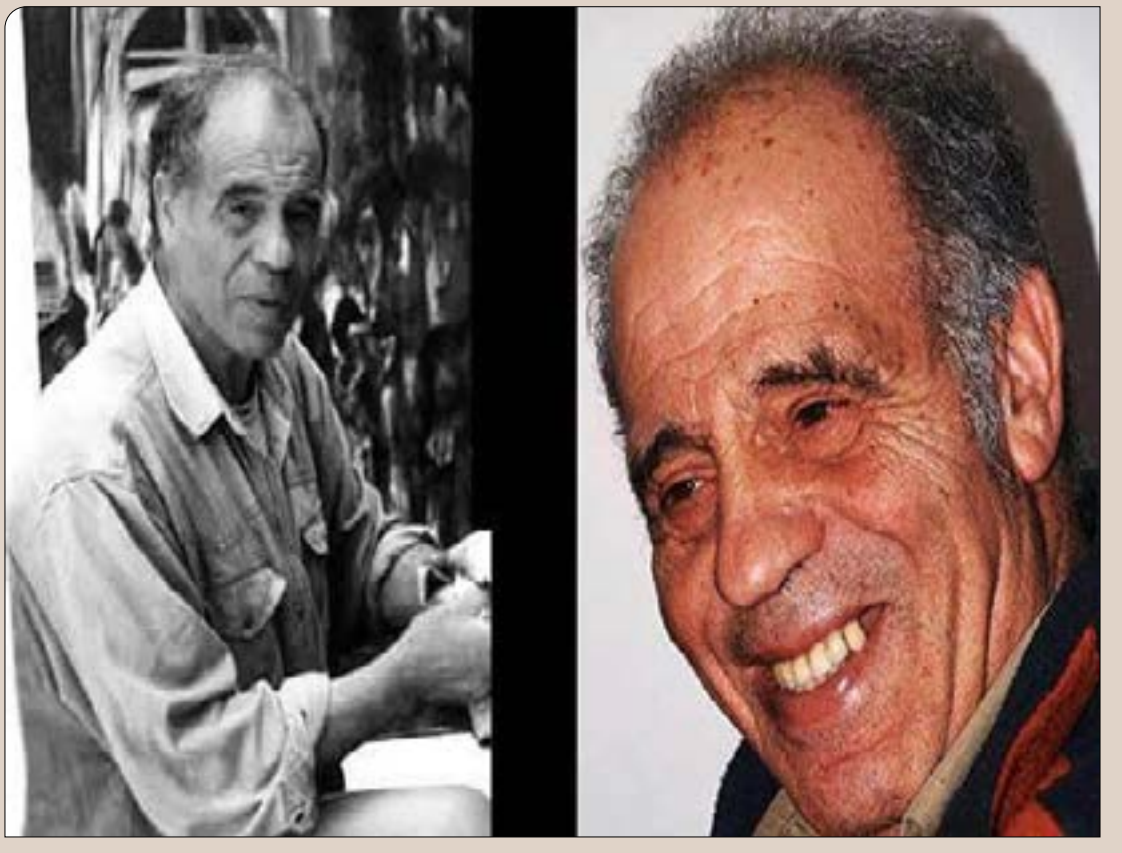

ولد بتونس العاصمة في 27 جويلية 1931 - توفي في 10 أكتوبر 2015) رسام وفنان تشكيلي تونسي.

- درس محمود السهيلي بمدرسة الفنون الجميلة بتونس فيما بين 1949 و1952، ثم اتجه إلى العاصمة الفرنسية حيث بقي 8 سنوات بالمدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة بباريس توجها عام 1960 بالحصول على الدبلوم. ثم درّس مادة الرسم الزيتي بمدرسة الفنون الجميلة بتونس. واستمر يدرس نفس المادة في ورشته بسيدي بوسعيد.

- اعتمد محمود السهيلي خاصة على استعمال ألوان الأبيض والرمادي والأسمر والأسود، وتقترب لوحاته من التجريدية.

- من أهم المعارض الشخصية التي أقامها محمود السهيلي:

* 1972: بقاعة الأخبار- تونس تحت عنوان " الجزائري"
* 1978: بقاعة الأخبار- تونس تحت عنوان " السودان ".
* 1982: برواق الشريف- سيدي بوسعيد.
* 1984: برواق القرجى- تونس

- كما شارك في عدة معارض جماعية انتظمت بتونس وبالخارج: الولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا والسويد وإيطاليا، أنجلترا ومصر.

شعرية المفارقة في رواية «ظل أعرج» للكاتبة زهرة الظاهري

عبد الدائم عمري

يقول ياكوبسن: « إن للعنصر الغالب في كل أثر من الاثار الفنية سلطة على سائر اجزاء الاثر وعناصره، يحددها ويغير مسارها «(1)، ولعل المفارقة هي العنصر الغالب في رواية» ظل أعرج ... سيرة ذاتية بمحض الصدفة « للكاتبة زهرة الظاهري صادرة عن دار خريف للنشر طبعة 2024 . فما هي تجليات المفارقة وما هي فاعليتها في توليد شعرية الكتابة ومتعة القراءة.

لقد عرف جون ماكوين ,» المفارقة (L'Ironie) على انها؛ صيغة بلاغية تعبر عن القصد باستخدام كلمات تحمل المعنى المضاد «. (2 (ويضيف د. يوسف عليمات في كتابه جماليات التحليل الثقافي « ان فاعلية المفارقة تتحقق في الحياة وفي الادب، بفضل قوة تاثيرها المفارق لتوقعات المتلقي، اذ تحمله الى احداثيات المفاجأة»(3) كذلك العتبات في رواية « الظل الاعرج» ملغمة، باعثة للحيرة والدهشة لانها قائمة على مفارقات عجيبة يبلغ فيها التوتر بين الموصوف والصفة في العنوان الرئيس « ظل أعرج « ذروته، لان الظل يتكسر ، يصغر او يكبر ولكنه لا يكون اعرج ابدا، وتتبدى فاعلية المفارقة في وضع المسلمات وقوانين اللغة موضع تساؤل يزعزع اطمئنان القارئ الى المألوف والمتواتر، وتتعمق الحيرة مع العتبة الفرعية « سيرة ذاتية بمحض الصدفة «، اذ يشتد فيها التوتر بين المبتدأ « سيرة ذاتية « والخبر « بمحض الصدفة»، وتستمد المفارقة فيه فاعليتها هي الاخرى من انتهاك القوانين والقواعد المنظمة للاجناس الادبية، لان الخبر فيه اختراق لاهم قوانين عقد السيرة الذاتية LE PACTE AUTOBIOGRAPHIQUE كما وضعه فليب لوجون في كتابه عقد السيرة الذاتية وهو القصدية، والبعد المرجعي للسرد باعتبار السيرة الذاتية « حكي استعادي نثري، يقوم به شخص عادي عن وجوده الخاص « (4) .ان كثافة المفارقات في عتبات الرواية تطرح العديد من الاسئلة. لعل اهمها: لم تعمد الكاتبة الى انتهاك القوانين المنظمة للاجناس الادبية وللغة أيضا؟ وكيف يمكن تصنيف الكتابة في « الظل الاعرج «؟ هل هي رواية ام سيرة ذاتية ام تظل قلقة في المنزلة بين المنزلتين؟ وهل يحتمل السرد مثل هذه المنزلة؟ اسئلة كثيرة باعثة للحيرة ودافعة للقراءة والكتابة أيضا. ولا غرابة في الامر فقد اثارت عتبات الرواية منذ صدورها ردود فعل متباينة ومختلفة واسالت الكثير من الحبر، ولعل ذلك يعد من علامات اهمية الاثر الادبي وقدرته على تحريك السواكن.

لا يمكن الاجابة عن هذه الاسئلة وغيرها الا بالبحث في الاسباب الموضوعية والذاتية الكامنة خلف هذه الثورة الهادئة التي تخوضها الساردة ضد

زهرة الظاهري

عرشي اللغة والكتابة. ولعل الدوافع الذاتية تجد جذورها وتجلياتها في سيرة « الطفلة التي لم تكبر «، فقد كانت « وهي الطفلة الصغيرة «، كما تردد الساردة في ثنايا الكتابة دوما، شديدة الوعي بواقعها ومنزلتها كأنثى تسلط عليها اشكال من التمييز والعنف، وقد تجلى وعيها المبكر في الالم التي تشعر به عندما ترى انكسار اختها التي حرمها والدها من الدراسة، وغيرتها منها حتى تحولت الى كره ولامبالاة لا مبرر لها كما يتجلى وعيها في الالم الذي تشعر به عندما يميز والدها بينها وبين اخوتها الذكور رغم تميزها في دراستها وقد تجلت ثورتها على الانساق الذكورية الضاغطة من خلال مشاركة اخوتها الذكور العابهم والبقاء خارج البيت الى وقت متاخر، وحرصها الدائم على التذكير بتفردها. والتصدي لكل من يسخر من الوضع المادي لولدها وتدخل في بعض الاحيان في خلاف حاد مع اهل امها، الذين يشعرون بالتعالي على والدها، حتى صاروا ينعتونها بسليطة اللسان. ولعل ثورة الكاتبة، وتكثيفها للمفارقات في عتبات الرواية من تجليات الطفلة التي كبرت ومظهر من مظاهر تداخل الاصوات في الرواية، لان القارئ تصيبه الحيرة في بعض الاحيان فلا يعلم اصوت الكاتبة وقد كبرت يسمع ام صوت الطفلة التي لم تكبر.

أما الاسباب الموضوعية فتكمن في انخراط الكاتبة زهرة الظاهري في تيار التجريب وهو ما يميز رواية ما بعد الحداثة POSTMODERNITÉ باعتبارها تعبيرة من تعبيرات الرفض والتشكيك في الشعارات البراقة التي انبنت عليها الحداثة، وادعاءها قدرة العقلانية الغربية على تحقيق الرفاه للانسانية جمعاء، ولكنها لم تنجح في تحقيق رهاناتها فحسب بل عمقت الفوارق بين الشعوب، وارتكبت اكبر المجازر والحروب باسم العقل الغربي، وتحت شعار نهاية التاريخ وتسويد النموذج الامريكي، ولعل من ابرز تجلياتها الابادة العرقية التي ترتكبها الصهيونية العالمية، في فلسطين بمباركة من الغرب المتحضر، وصمت مريب من العرب والمسلمين، لهذه الاسباب ولغيرها انبرت اصوات عديدة تشكك في العقلانية الغربية، و» المدونات الكبرى» وكانت الرواية هي الفضاء الامثل لذلك شهدت ثورة على كل الانساق الجمالية التي سنتها الحداثة. من كسر الزمن، والتصرف فيه، الى التلاعب بالشخصيات وصولا الى موت الراوي في رواية بيدرو بارامو مثلا ، وتاكيدا لانخراطها في تيار ما بعد الحداثة الرافض للمسلمات تضمن الساردة موقف الكاتبة التشيلية ايزابيل الليندي ISABEL ALLENDE اذ تقول:» عندما تكتب تمتع بالكتابة، انسى الكتب والنقاد، واتبع قلبك، تمتع باللعبة، وغامر وافتح عقلك ، فليس ثمة احد خلف ظهرك يقرا اخطاءك « (ظل اعرج، ص 12 (للتعبير عن موقفها من الانساق الجمالية التي تسعى الى تسييج الابداع الادبي والحال ان الابداع خروج عن الاطار وافلات من القيود والحدود. وقد تجلى ذلك في الحوارية وحضور صوت الاخر في عتبات فصول الرواية واغلبها أصوات لرواد الثورة على المسلمات والقوانين المكبلة للابداع، نذكر منهم على سبيل المثال البير كامو. وكافكا، ولكن النظرة الفاحصة تكشف ان هذه الثورة الهادئة تتنزل في جمالية السرد بامتياز الم يقل تيزفيتان تودوروف في كتابه انشائية السرد : « إن الاثر العظيم في الوقت الذي ينتهك قوانين الجنس الذي ينتمي اليه، يؤسس لجنس جديد « (5). وهكذا يصبح الانتهاك الواعي لقواعد الاجناس الادبية علامة ابداع وآلية تطوير في ان واحد.

وبما ان « المفارقة تضمر في بنيتها كل ما هو اشكالي، ناجم عن التوتر بين نسقين متضادين. وهي تسعى لتقليص المسافة بين النسقين، ويسعى الكاتب من خلالها الى تشكيل العوالم المفارقة داخل النص وتحقيق الاثر الانفعالي (6)، تكمن فاعلية المفارقة في قدرتها على تحقيق الانسجام والمصالحة والحوارية بين السيرة والرواية، او بين البعد المرجعي والفعل التخييلي في رواية الظل الاعرج، لان السرد يسير في خطين متعامدين، خط عامودي يمتد من الماضي الى الحاضر، يصور سيرة الساردة من الطفولة المبكرة الى المراهقة فالنضج مرورا بتصوير معاناة المعلمة في الارياف، وينتهي بالساردة وقد كبرت تلك الطفلة

وانطفأت جذوة الكتابة والقراءة او كادت بسبب اكراهات اليومي. وخط أفقي يمتد اطرادا في حاضر الكتابة. يظل غير معلوم لان السارد تصر على انها لا تعرف عنه شيئا وانها كما تقول لاتحب التخطيط لانه يشوه السرد وتضيف:» في الحقيقة لم اخطط، انا لا اثق بالتخطيط حين يتعلق الامر بالكتابة « (ظل اعرج، ص 10). وهكذا يجد القارئ نفسه امام نمطين من انماط السرد في علاقته بالحكاية سرد لاحق، وسرد سابق يقول منصور قسومة في كتابه طرائق تحليل القصة « ميز جرار جنات بين نوعين من السرد لاحق ورسم له المتوالية التالية: مغامرة-رواية-قصة، ويناسب السيرة الذاتية، وسرد سابق وتجسده المتوالية التالية : رواية-قصة-مغامرة وهو من مميزات السرد التخييلي»(7). والناظر في رواية الظاهري يلاحظ انها تجمع بين النمطين على خلاف السيرة الذاتية عند الكثير من الكتاب. ومنهم على سبيل المثال طه حسين في الايام وجبرا ابراهيم جبرا في البئر الاولى وشارع الاميرات سيرتان يهيمن فيهما السرد اللاحق او الحكي الاستعادي، لا تقطع سيروته الا بعض الوقفات ذات الطابع التعليمي، اما في رواية الظاهري فالخط العامودي نفسه لئن انبنى على تقانة السرد اللاحق، فانه لم يخل من ربطه دوما بالخط الافقي وحاضر الكتابة، من خلال ملاحظتين على الاقل الاولى تتجلى في تنازع السرد بين الطفلة التي ترى وتفعل في الماضي والكاتبة التي تسرد وتعلق في الحاضر، ليتداخل التبئير فلا يعلم القارئ اصوت الساردة الذي يسمع ام صوت الطفلة التي لم تكبر، اضافة الى حرص الساردة على تكرار عبارة وانا الطفلة « تعودت وانا الطفلة ان احمل عبئي بمفردي» (ظل أعرج، ص53) وهكذا فان المسافة بين الذات الساردة والذات المسرودة او المتكلم عنها تتقلص احيانا حتى لا يفرق القارئ بينهما. على خلاف حرص كتبة السيرة الذاتية على المحافظة على هذه المسافة حتى ان بعضهم قد يلجأ الى التبرأ من الذات المسرودة فيكون السرد بضمير الغائب طه حسين مثالا، او يترك الطفل يخوض ماضيه وحيدا ويحرص كل الحرص على الرؤية المصاحبة والتبئير المتطابق مع الطفل، فتتسع المسافة بين الذات الكاتبة والذات المكتوب عنها.

ويمكن تقسم السيرة الذاتية للكاتبة الى ثلاثة مراحل طفولة شقية موسومة بوعي مبكر وحاد بالتمييز المسلط ضد الانثى، لئن تعددت تجلياته فان القارئ وقد فرغ من قراءة السيرة يستحضر على الاقل ثلاث احداث دالة ظلت راسخة في ذهن الساردة وتحولت الى جراح غائرة، الحادثة الاولى تمثلت في حرمان الاخت الكبرى من الدراسة، وما يسببه من الم للاخت والساردة معا، واما الحادثة الثانية فهي اللامبالاة التي قوبلت بها ولادة اختها حتى ان امها اوكلت العناية بها الى الاخت الكبرى اما والدها فلم يهتم بها اصلا مصداقا للاية الكريمة « واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كضيم « (سورة النحل الآية 58). اضافة الى العنف الذي كان يسلطه على امها من حين لآخر. واخيرا وليس اخرا حادثة الكلبة التي اشترك في قتلها مع احد الجيران فقط لانها انثى وقد تكون مجلبة للعار. بما يؤكد فاعلية الانساق الذكورية التي تفضل الذكر على الانثى. احداث انتهت بالساردة الى حالة من التمزق في علاقتها بصورة الاب تجمع بين التعلق الشديد به باعتباره رمز هوية، ورفضها الشديد لممارساته الموسومة بالعنف والتمييز غير المبرر. اما فترة المراهقة فقد تميزت بثورة الساردة على الاجواء داخل الاسرة والانتقال للعيش في بيت خالها، وتعلقها الشديد بزوجته، التي تزامن موتها مع اجتياز امتحان البكالوريا وكان سببا في جعل الساردة تتخلف عن اجتياز الامتحان وتعيد السنة ولكنها شهدت ايضا نشاة عاطفة حب متوهجة ظلت في حيز الامكان ولم ترى النور بسبب الخجل والكبرياء وأشياء اخرى. كما اتسمت فترة الجامعة والعمل كمعلمة في الارياف بالابتسار، لان الساردة اختارت شعبة قصيرة واقتصرت الطريق لدخول الحياة المهنية باسرع وقت ومساعدة الاسرة، ولكنها لئن بينت معاناة المعلم في الارياف، فقد بددتها متعة الالتقاء يوميا باطفال متعطشين للمعرفة يشتركون معها في المأساة والتنقل لمسافات طويلة وما تجده الساردة من مشقة في التنقل لمدرسة الريفية النائية. وظروف الاقامة الصعبة. ولقد شهدت هذه المرحلة موت والدها بعد صراع طويل مع المرض.

سيرة يشدها خيط ناظم محبوك بعناية يستمد معناه ودلالته من النمو المطرد لوعي الساردة بواقعها كانثى يسلط عليها التمييز داخل الاسرة وخارجها، وبواقع المرأة عموما ومعاناتها في مجتمع تحكمة انساق ثقافية ذكورية ضاغطة.

اما الخط الافقي، فيمتد من لحظة نشأة الرغبة في الكتابة الى اكتمال الرواية، وموضوعه ليس السيرة الذاتية في حد ذاتها وان كانت الكاتبة تراوح بينها وبين لحظة الكتابة، بل يعالج اسئلة الكتابة من منظور ذاتي وموضوعي في ان معا، انطلقت فيه الكاتبة من الرغبة في الكتابة باعتبارها المعادل الموضوعي للمرآة التي حرمت من النظر فيها الى سن الخامسة عشر، وعندما اكتشف امرها، انتزعت منها وكسرت. وظلت الرغبة في التجلي في المرآة تسكن الساردة، حتى تمنت وهي تستحضر اسطورة نرسيس وزهرة النرجس، لو انها تسكن تلك البركة وتتجلى فيها « تقول الساردة: « تمنيت لو انني اختفي داخل البركة « (ظل اعرج، ص82). ولعل ما يميز هذا الجانب من الرواية ما يمكن تسميته بازمة الكتابة و Le syndrome de la page blanche 8) او متلازمة الورقة البيضاء كما يحلو للكاتب الامريكي ستيفن كينق ان يسميها في روايته كيس العظام Sac-D'os وتتمثل في عجز الكاتب في بعض الاحيان عن الكتابة رغم الرغبة الجامحة والحاجة الملحة. وقد تجلت في خوف الساردة من الكتابة ذاتها اذ تقول :» هذا الخوف الذي ينتابني كلما فكرت في كتابة مذكراتي» (ظل اعرج ص16). بما يجعل السرد ليس كتابة مغامرة بقدر ما هو مغامرة في الكتابة ذاتها، تبدو الرواية للنظرة العجلى مذكرات كما تقول الساردة ولكنها ليست كذلك لانها في تماسكها وترابطها يشدها خيط ناظم كتابة السيرة الذاتية وعلاقة الكاتبة بالكتابة استعانت عليها بعتبات مختلفة وشذرات من نصوص اخرى، تبلغ فيها الحوارية ذروتها من باستدعاء اصوات كثيرة تنتمي الى ازمنة متباعدة، وثقافات مختلفة، وديانات متباينة من بوذا، وسقراط الى كافكا ودوستويفسكي مرورا برائدة المراة العربية نوال السعداوي، فالساردة ذاتها زهرة الظاهري، حوارية يحضر فيها صوت الاخر على تفرده واختلافه، بما يكشف سعة الافق الذي تنطلق منه الكاتبة والطبقات المشكلة للسرد عندها، ويؤكد البعد الانساني لقضايا الكتابة بما هي اداة مزدوجة تنكأ الجراح المندملة، لان « الكتابة انفتاح جرح ما « (ظل اعرج، ص 5) كما يقول كافكا ولكنها في الان نفسه الشمعدان الذي يساعد الساردة على « السير في المناطق الاشد عتمة « (ظل اعرج ص12 (. ويبلغ فيها تيار الوعي ذروته عندما تعمد الكاتبة الى تقانة الاستبطان، لتفكيك الذاكرة وتحقيق المصالحة مع الطفلة التي لم تكبر اذ تقول الكاتبة: « اليوم كبرت، ولكن تلك الطفلة لم تكبر «(ظل اعرج، ص91 (، وهي توظف للمرة الاولى اسم الاشارة للبعيد. وتعلن الكاتبة في نهاية الرواية انها تغيرت كثيرا بعد ان كبرت الطفلة قائلة:» أشياء كثيرة انطفأت بداخلي، لم اعد تلك المتطرفة....لم اعد انا، اصبحت صلبة بما يكفي لارى ان لا شيء يستحق ان اوليه اهتمامي» (ظل اعرج،ص169).وينتهي السرد السابق والساردة في المطبخ تنتظر ان يستيقظ الاولاد، وقد غرقت في اليومي Le quotidien والمعتاد وكادت جذوة الكتابة والقراءة ان تنطفئ.

وفي الختام، لئن بدت شعرية المفارقة هي العنصر المسيطر في رواية الظل الاعرج فقد كشف البحث في فعالتها، ليس فقط اثارة حيرة القارئ ودفعه للتفكير واعادة النظر في بعض المتناقضات لقدرتها على كشف مواطن الانسجام والتفاعل بينها. بل ما تنطوي عليه الكتابة من مواقف سواء من شعرية الحداثة وقوانينها المكبلة للابداع. وانخراط الرواية في تيار التجريب والتجاوز.

.....

1 – توكلي، محمود رضا، ملامح ما بعد الحداثة في الرواية العربية المعاصرة، مجلة إضاءات نقدية، السنة الحادية عشرة العدد الثالث والاربعون خريف 2021 ، ص .67

2 – د. يوسف عليمات، جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان الاردن، الطبعة الاولى 2004 ، ص 273 .

3- نفس المصدر ، ص، 274 .

4- لوجون فيليب، السيرة الذاتية الميثاق والتريخ، ترجمة عمر حلي، الناشر المركز الثقافي العربي الطبعة الاولى 1994 ص، 22.

5 – Tezvitan,Todorov, Poétique de la prose, Édition de Seuil, 1978, édition numérique.p 11.(La grande oeuvre créé, d'une sertaine manière, un nouveau genre, en même temps que'elle transgresse les règles du genre qui avait cours au paravant.).

6 – د. يوسف عليمات، جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان الاردن، الطبعة الاولى 2004 ، ص 274

7- قيسومة، منصور، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر تونس، الطبعة الاولى، سنة، 2000 ص، 25

8- King Sthevin, Sac D'Os, Édition Albin Michel, S.A,1992, rue HHuyghens, 75014 Paris.p21, Édition numérique.

9 – الظاهري، زهرة، رواية، ظل اعرج ... سيرة ذاتية بمحض الصدفة الناشر دار خريف، طبعة، 2024 .

قراءة في كتاب

الإنسان في متاهة عصره الرقمي

قراءة تأويلية في المجموعة القصصية «أصغر من رجل بعوضة» للقاص حسن علي البطران

معتصم الشاعر*

في مجموعته القصصية المسماة « أصغر من رجل بعوضة» والصادرة عن دار لوتس للطباعة والنشر والتوزيع في العام 2022، يسعى القاص السعودي حسن علي البطران للتعبير-بأسلوب مكثف-عن مأساة الإنسان في هذا العصر الرقمي، تضم المجموعة ثمانٍ وأربعين قصة تحمل كل ثلاث قصص رقما، وهيَ تنتمي إلى القصص القصيرة جدا أو قصص الومضة، والتي يعد البطران من أكثر المشتغلين بها في الوطن العربي، وقد لفتت مجموعاته القصصية عددا من النقاد وطلاب الدراسات العليا.

في « أصغر من رجل بعوضة»، تتنوع الموضوعات لتشمل الكثير من مجالات الحياة، الحياة التي تتسم بالضآلة كما يوحي بذلك العنوان، يمكننا أن نجملها في موضوعات بحسب الإفرازات النفسية للعصر الذي نعيش فيه، والذي غيّر تماما من نمط حياتنا وتعريفنا للأشياء وعلاقتنا بأنفسنا وبالآخرين، لقد خلقت مواقع التواصل الاجتماعي- كأبرز عنوان للعصر الرقمي- واقعا اجتماعيا وإنسانيا جديدا، وأثّرت في صحتنا العقلية ووصل البعض إلى مرحلة الإدمان، وازداد شعورنا بالقلق والاكتئاب وشعورنا بالعزلة وظهرت مشكلات اجتماعية عديدة، وتصدر المشهد أناس تافهون شغلوا الناس وقلبوا موازين القيم، واضمحلت تلك النشوة التي تنتج من المعرفة الجادة والتأمل والاكتشاف، وصار الإنسان كالمجنون يطارد توافه الأمور من مكان إلى آخر، وهذه الصورة يرمز لها الكاتب بمطاردة البعوضة، فيقول « ولن نتوقف عن ملاحقة البعوضة وإن انتقلت من مكان إلى آخر"، فلنقترب أكثر من ملامح عصرنا كما رسمه قلم البطران محاولين تأويل قصصه الموجزة في سياق الواقع، نحاول أن نجد خيوطا ربما تساعدنا على الخروج من متاهة عصرنا الرقمي.

ومن الآثار التي تلقي المجموعة الضوء عليها:

الهشاشة النفسية

لقد صار إنسان العصر الرقمي هشاً من الناحية النفسية، يمكن أن يحطمه أي شيء، كل تعليق سلبي قد يحفر جرحا في الأعماق، عدم احتفاء الناس بما ننشر قد يجرحنا، عدم تعليقهم

حسن علي البطران

أيضا، لم يعد الإنسان واثقا في نفسه، ولا قيمته نابعة من ذاته، ولذلك يحتاج دوما إلى التوكيد الاجتماعي، ومن أمثلة الهشاشة قصة غفوة، حيث يؤدي عدم تحقيق حلم إلى حالة من الاكتئاب هي أشبه باحتجاج على القدر، تقول القصة:» تبخر حلمها، أقيمت صلاة المغرب، لم ترتدِ العباءة، ولم تتوضأ»، إنها الهشاشة التي تجعل الإنسان لا يتقبل ذاته ولا نتائج أعماله ولا نظرة الناس له، وتضطرب علاقته بخالقه لمجرد ظهور عقبة في الطريق.

جعلتنا الهشاشة أكثر خوفا من أي شيء قد يدمر صورتنا الذاتية، وهذا هو الوتر الذي تعزف عليه ثقافة الفضائح، نجد ذلك في قصة البيت الزجاج، والاسم يحيلنا إلى المثل المشهور الذي بيته من زجاج لا يقذف الناس بالحجارة، والذي يعني أن الآخرين أيضا يمتلكون معلومات كافية عن ما يعيبنا فعلينا بالحذر.

الظمأ إلى التوكيد الاجتماعي

صرنا مكشوفين للجميع، نقوم بتوثيق حياتنا العادية، من لحظة الاستيقاظ وحتى المنام، وصرنا نحتاج إلى الآخرين لنتأكد من أننا سعداء، نحتاج إلى قلوب يضعها الآخرون على صورنا في مواقع التواصل لنحب أنفسنا، نحتاج علامات الإعجاب لنعجب بأنفسنا، نحتاج إلى تعليق الآخرين على الأماكن التي زرناها، لنقرر إذا كنا سنشعر بالسعادة بأثر رجعي أم لا؟، ولحاجة الآخرين أيضا إلى التوكيد لاحقا، فهم قد يصفقون للشخص مجاملة ليحصل على شعور طيب، فأول قصة في المجموعة بعنوان تبرير تقول:» سترت جسدها خوفا من البعوضة، صُفق لها في حفل مصغر»، فكل صورة لنا في مواقع التواصل وكل منشور هو في الحقيقة دعوة إلى حفل مصغر، نحصل منه على الإندروفين لنشعر بالسعادة، مما يؤدي بنا إلى الإدمان، ولذلك نمضي وقتا أطول لإدارة حساباتنا أكثر من الوقت الذي نقضيه لإدارة حياتنا.

السطحية

هنالك طوفان من الخيارات، ملايين الفيديوهات تغرقنا كل يوم، ملايين المعلومات، آلاف الكتب تصدر كل يوم، ملايين المنشورات تتجول في الفضاء الرقمي، تبحث عنا، هذه الخيارات العديدة تصيبنا بما يسمى بشلل التحليل ANALYSIS PARALYSIS وهذا الشلل يجعلنا لا نختار، ننتقل من موضوع إلى آخر، نبدأ قراءة شيء ونقفز إلي آخر دون أن نكمله، نستهلك معلومات دون أن نعطي أنفسنا وقتا للتأمل ومعالجة المعلومات، والوصول إلى معرفة حقيقية تقود إلى حكمة نعيش بها ونورثها للآخرين، ففي قصة فلتر- وهذه التسمية تشير إلى عملية التزييف التي تحدث في مواقع التواصل- يقول:" أراد أن يقفز من السطح، فقفز إلى سطح»، كأننا نعيش في متاهة السطحية، كل طرقاتنا تؤدي إليها.

وفي قصة بدون عمق، يقول:» فتح دفتره، كتب فيه كل من رآه»، وهذا العنوان يحيلنا إلى قصة هوس العمق للكاتب باتريك زوسكيند، والتي تُقدم فيها فنانة تشكيلية على الانتحار، لأنها لم تجد العمق الذي تحدث عنه الناقد، قصة ساخرة أيضا تُجسد الضياع الذي يعانيه الإنسان حين يرهن قيمة أعماله لنظرة الآخرين، وفي قصة البطران، بلاغة استخدام مِن بدل ما، فكأن بطل القصة يفتح دفتره ليكتب فيه انطباعات الآخرين.

الزيف

في قصة يصعد السلم نازلا يقول:» حرص على

قراءة في كتاب

الصوم، تذكر برودة الماء، قال: السنة القادمة أكمل سنوات المراهقة»، تتناول المجموعة بعض أوجه الزيف الذي بات منتشرا في عصر الفلاتر، والقداسة التي تتلون، ففي نقاب ممزق يقول:» ابتسم، وابتسم الجميع من حوله، لم يزدد غرورا، انحنى وتكاثرت حوله صاحبات الكواعب المرتفعة».

الاغتراب والعزلة

في قصة غربة يقول:» يسأل عن البعيد، والقريب أكثر احتياجا، يظل في حالة غربة، وهو يهيش داحل أسوارهم»، إننا في حالة عطش دائم لشيء مجهول، نفترض أنه ليس في أيدينا، وليس في أعماقنا أيضا، ولذلك صرنا غرباء حتى عن أنفسنا، منعزلين عن كل شيء تقريبا.

ضعف الروابط الأسرية

لقد جعلتنا وسائل التواصل الاجتماعي وألعاب الفيديو معزولين عن بعضنا حتى لو كنا نعيش في مكان واحد، حتى الزوجين صار كل منهما يعيش في عالمه الافتراضي، قد تجمع رأسيهما مخدة واحدة، لكن رأس كل منهما في واد مختلف، قصة ثقوب متباعدة تقول:» يجمعهما سرير واحد، لكنه مثقوب، تحاول تقترب منه، يتظاهر بالمرض»، وفي صبغ من جنون يقول:» قلت لها: جنوني»، صمتت قليلا ثم قالت:» هما لك «، حتى الأبناء الذين هم زينة الحياة الدنيا صاروا مصدر إزعاج لنا بمحاولتهم سحبنا من عالمنا الافتراضي والقلاع التي نريد احتلالها ببطولتنا الخارقة في ألعاب الفيديو، إنهم يُثيرون غضبنا فننفعل كالمجانين، وقد ندرك بعد فوات الأوان أننا قد فرطنا في شيء عظيم، ففي قصة برزخ يقول» قبل أن يغمض عينيه للأبد، نطق: جننت بهما»، وضمير التثنية يوحي لنا بأن بطل القصتين واحد، في المرة الأولى كان جنونه السلبي ناتج من الانزعاج، والآن يصير للجنون معنى إيجابي، أي العشق، ولكن فات الأوان.

غياب المرجعية

في هذا العصر نعيش في سيولة القيمية، ناتجة عن غياب أو تغييب للمرجعية، فصارت الأهواء بديلا للمعايير، ولذلك تتمزق كل أوراقنا القديمة عن القبح والجمال، الخير والشر، الخطأ والصواب، فصارت ساحتنا ملعبا للعابثين، ولا يمكننا أن نتنبأ بما سيحدث لنا، باب الاحتمالات مفتوح على مصراعيه، ففي قصة باب يقول:» غفل عنه الملك، مزقت الذئاب بطون الغنم».

الاستسلام للتحكم

من ملامح إنسان هذا العصر، القابلية لتحكم الآخرين-خاصة إذا كانوا في الخفاء- في مصيره وحياته، إنه قد يسمع عن مؤامرة تحاك ضد البشرية ومحاولات لترسيخ نظام التفاهة لتسهيل قياد البشر، وقد يقرأ بيانات معلنة عن مشروعات لهدم القيم أو الأسرة، أو غير ذلك، لكنه لا يستطيع أن يقاوم، كأنه يتعامل مع القدر، ربما لأن من يتحكمون في البشرية يعرفون كيف يطوِّعون المتمردين، في قصة قناع يقول:» ارتدى ثوبه ليستر عورته، أُغلق عليه الباب»، وهذا ما حدث لمشاهير كثر سُدّت الأبواب في وجوههم فقط لأنهم فضحوا ما يجري، ولتعميق الاحساس بالتحكم عن بعد يستخدم القاص صيغة المبني للمجهول، فنجده يقول:» فُتح كتابه..»، أُبعد عنها..»، " لم يُصفق له.."، « أُغلق عليه الباب»، هذه الصيغة توحي بضعف المفعول به، أما الذين يتحكمون فيه فهم ماضون في طريقهم، « يتنافسون في النمو»، وبإمكانهم توجيه الحياة والانتباه إلى حيث يريدون، فقط عليهم بتسليط الأضواء، ففي قصة بقعة ضوء يقول:» يعمل على إزالة أدران يعتقد أنها تستقر في داخله، يصطدم بكثير من الضعفاء، يستمر في غسيل الأوساخ عن ثيابه»، إنهم يعرفون كيف يزيلون التهم عنهم، فهم ماهرون في صناعة الشعارات وهم سحرة يجيدون فن التزييف.

---

*روائي وكاتب من السودان

رأي

عن الدخيل المهضوم في قاموس الشعب التونسي

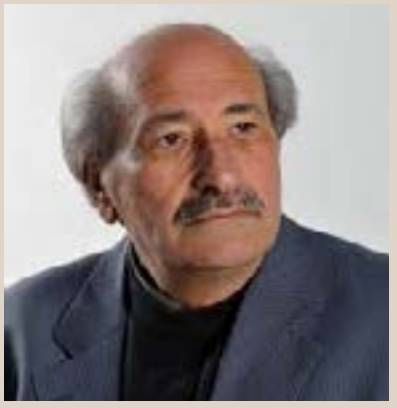

المنصف المزغني

كلمات مهاجرة من هنا وهناك ، و تَتَوْنستْ

————————

1-

طرح المسرحي عبد الحميد قياس في تدوينة اخيرة موضوعا طريفا ،وهاما وجديرا بالمساءلة والبحث عن الكلمات الفرنسية التي باتت متداولة في حواراتنا التونسية اليومية ،،،وهنا اتواصل مع ما جاء في تدوينته

2-

لم تكن لغة المستعمر الفرنسي لتونس ، هي اللغة الوحيدة التي تداولها الشعب التونسي الذي عرف ، عبر حقبه التاريخية القريبة في الزمن ، كثيرا من المفردات التي دخلت على لسان التونسيين ، وباتت مألوفة في المتداول اللساني الاجتماعي ، بعد ان نالها من تحريف النطق ما كان لاءم اللسان الشعبي التونسي ،

ونورد، في التالي ، بعض الامثلة ،خلال هذه التدوينة ، بغاية الوعي اللغوي بما يجري من منطوق على لسان التونسيات والتونسيين ،

3-

والمفردات تعنى بالالات ، والافعال ،في شتى مجالات الحياة مثل الطعام واللباس والالات ، والافعال في الانشطة اليومية ، والحرف من زراعة و مهن متنوعة ، منها ما تواصل ومنها ما انقرض أو استجدّ ، دون نسيان الصناعات الحديثة والمستجدّة

4-

ولقد تأكد ما يلي :

ان من يصنع شيئا هو من يتولى تسميته، كمن يلد مولودا ، فانه يكون هو من يختار له اسما يرتضيه له.

5-

والى جميع الصديقات والاصدقاء ، قائمة أولية، وبسيطة تستوجب من اهل الاهتمام المساهمة في إثرائها بما قد نسيناه او تغافلنا عنه او سهونا عن ذكره (دون ترتيب الفبائي)،،

6-

القائمة الاولية تتضمن المفردات الاتية ،

كرواسون ،
كرافات
، صباط ،
بلوزة ،
قلسيطة (كلسيطة) ،
بوسطو ،
جيب ،
زلاط
زرواطة
بيلوفار ،
كرهبة ،
كلسون
كارطة ،
كريطة ،
كارطي
كاسة
طسطة
برويطة ،
كرومة
زلفاطة
طاس ، طاسة
ترومبيطة
باش
موزيكا
طرشي
دجين
جزوة
دنقري
كفتة
شمندفير
تيندة ،
كرموس
كرتا
بقلاوة
ترومفاي
ترينو ،
كار ،
زربوط
بسكلة
لابز
سقالة
سكولة
بشماط
بسكوتة
قم
بلومة ،،

7-

والملاحظ ان: كثيرا من المفردات يتم تطويعها للسان القوم المتكلمين بها ، وهي ظاهرة غير خاصة بالشعب التونسي فقط ، ولكن ،

يتمّ الاحتفاظ في نطقها بما يوافق هوى اللهجة لدى الشعب الذي ادخلها فتداولتها الالسنة بما يلائم نطقهم اللغوي ، وبهذا ، فقد تطرأ تحولات على المفردة الدخيلة وتتعرض المفردة الى التحريف ، او محو بعض الحروف ، حتى غدا من الصعب ، احيانا يصعب ان نتعرف على ، الجذر الاول للمفردة الدخيلة التي تسللت الى اللسان الوطني التونسي .

8-

وفي اللهجة التونسية تاثيرات تاريخية كثيرة عربية قديمة ،وفارسية، واسبانية وتركية عثمانية، وايطالية وفرنسية وانجليزية وامريكية ومصرية وجزائرية ومغربية وليبية،،

9-

ولا تستعمل الشعوب من اللغات الاخرى الا ما ورد منها من مفردات تخص الجديد المطلوب من الالات الحديثة المستوردة خاصة وغير المصنوعة في تونس او باقي البلاد العربية ، والملابس المقبولة ، والاطعمة من اكلات يومية او مناسباتية او مرطبات استساغتها الشعوب واستساغها لسان الشعب التونسي حتى باتت من ضمن مفرداته المحلية أو من المتداول في قاموس الشعب الشعبي ،،،

————————

@ والسلام : تونس في 25 اكتوبر 2024- كتابة : منصف المزغنّي ، ،

قراءة في كتاب

«تونس المناضلة»: الحركات الشيوعيّة والنقابيّة والجمعياتيّة في تونس زمن الاستعمار الفرنسي» للأستاذ والمؤرخ الحبيب القزدغلي

منصف سلطاني - أستاذ وباحث في التاريخ المعاصر

بعد كتابه الموسوم ب» أوراق من تاريخنا» الصادر عن دار « نيرفانا» للنشر في 26 أوت 2021، صدر عن نفس الدار في سبتمبر 2024 لأستاذ التاريخ المعاصر بكليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، الأستاذ الحبيب القزدغلي كتابه الجديد المعنون ب» تونس المناضلة»: الحركات الشيوعيّة والنقابيّة والجمعياتيّة في تونس زمن الاستعمار الفرنسي –»

والأستاذ الحبيب القزدغلي هو من مواليد مدينة الحمامات التابعة إلى ولاية نابل سنة 1955، حاز على شهادة الدكتوراه بعد إعداد بحثه الموسوم ب» تطور الحركة الشيوعية بتونس (1919 – 1943) تحت إشراف الأستاذ علي المحجوبي والتأهيل الجامعي من كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. وهو أستاذ تعليم عال مختص في التاريخ السياسي المعاصر وتاريخ الأقليات الدينية بتونس بكليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة. وأضفى المؤرخ الحبيب القزدغلي على نضاله الطابع العلمي والأكاديمي. كما اقترن الإلتزام السياسي لديه بالتشبث بقواعد البحث الأكاديمي معتمدا على التعمّق في البحث من خلال المصادر والوثائق الأرشيفية. كما أشرف على تأطير عشرات الطلبة في رسائل الماجيستير وأطروحات الدكتوراه في الجامعة التونسية في مسائل مختلفة.

ناضل منذ دراسته الثانوية في السريّة صلب الحزب الشيوعي التونسي الذي وقع حظر نشاطه في الساحة السياسية منذ 1963. كما تولى منصب عميد كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة مرتين متتاليتين، امتدت المدة الأولى من 2011 سنة إلى سنة 2014. وأمّا المدة الثانية فقد إمتدّت بين 2014 و2017. كما تحمل عدة مسؤوليات أخرى من بينها رئاسة مخبر التراث في نفس الكلية.

وعُرف الأستاذ الحبيب القزدغلي في الحقل الأكاديمي بغزارة إنتاجه العلمي وتمحورت مؤلفاته حول تاريخ الحركة الشيوعية في تونس وتاريخ الأقليّات وألقى عشرات الورقات والمداخلات العلمية في مؤتمرات وندوات علمية دولية في تونس وخارجها ... كما صدرت له في السنوات الأخيرة العديد من البحوث في علاقة بتاريخ التيارات اليسارية والنقابيّة في تونس.

صدر كتابه « تونس المناضلة»: الحركات الشيوعيّة والنقابيّة والجمعياتيّة في تونس زمن الاستعمار الفرنسي –» في طبعة أنيقة وإخراج جيّد في 264 صفحة من الحجم المتوسط مسبوق بتقديم في حوالي 9 صفحات بقلم المناضل والأستاذ هشام سكيك.

قسّم المؤلف الكتاب إلى تمهيد وثلاثة أبواب كبرى.كما أدرفه بفهرس عام حول محتوى الكتاب وتضمن كل باب في الكتاب ملاحق وقائمة مصادر ومراجع موزعة بين مراكز الأرشيف الوطني والفرنسية والمنشورات الرسمية ودراسات مختصة بلغات متعددة لاسيما العربية والفرنسية.

جاء الباب الأول من الكتاب عنوان» حول تاريخ الحركة الشيوعيّة في تونس 1919 – 1943» في فصلين، وورد الفصل الأول موسوما ب» بحوث» وفي حين حمل الفصل الثاني عنوان « وثائق وصور حول الحركة الشيوعية « تطرّق الأستاذ الحبيب القزدغلي في الفصل الأول إلى عدّة مسائل بالغة الأهميّة وهي على التوالي: بروز الحركة الشيوعية في

الحبيب القزدغلي

تونس في العشرينات / تطورها التنظيمي بين العشرينات والثلاثينات / سياسة الحزب الشيوعي التونسي غداة الحرب العالمية الثانية واختتم هذا الباب ب إبراز المشاركات التونسية في مؤتمرات الأممية الشيوعيّة.

وأمّا في الفصل الثاني فقد أورد المؤلف وثائق هامة تؤرخ لنضالات الحركة الشيوعية في تونس ضد الاستعمار الفرنسي و من أهمها الوثيقة الرابعة الموسومة ب « نحن والمسألة الوطنية» وهي وثيقة أصلية نشرها علي جراد الأمين العام للحزب الشيوعي التونسي في جريدة الطليعة سنة 1938 والتي عبّر من خلالها على موقف الشيوعيين المناهض للاستعمار الفرنسي بتونس.

وأمّا الباب الثاني من الكتاب فجاء حاملا العنوان الآتي: « الحركة النقابيّة في تونس 1925 – 1956» وقسّم المؤلف هذا الباب إلى فصلين، ورد الفصل الأول موسوما « بحوث» وفيه ركز الأستاذ الحبيب الكزدغلي على مايلي: محاولة اعادة بناء الحركة النقابية بعد نهاية تجربة محمد علي الحامي ومحاكمة رفاقه الزجرية من قبل السلطة الاستعمارية. وتطرّق أيضا في نفس الفصل إلى مسيرة النقابي الشيوعي الفرنسي المناضل جون بول فينودوري صديق محمد علي الحامي في الكفاح النقابي خلال العشرينات الذي تعرّض إلى النفي والإبعاد بسبب نضاله النقابي ونال تقريبا نفس مصير النقابيين التونسيين مثل الحامي ومختار العيّاري.

وأما الفصل الثاني فقد اختار له الكاتب عنوان «وثائق ونصوص حول الحركة النقابية في تونس (1924 – 1956)» أورد فيه الأستاذ الحبيب القزدغلي صور ووثائق على غاية من الأهميّة حول نضالات الحركة النقابية بتونس ضد الاستعمار الفرنسي من أهمها نذكر صورة لمحاكمة محمد على الحامي ورفاقه في المحكمة (ص 158) و بيان الحزب الشيوعي التونسي بمناسبة إحياء الذكرى الثانية لإضراب عملة الرصيف ببنزرت إضافة إلى مساندة الحزب الشيوعي لطلبة جامع الزيتونة في الخمسينات إثر نشوب الخلاف بين الوزارة ومدير جامع الزيتونة « يعلن أمام الشعب أنه يجب فضّ الخلاف بين الوزارة ومدير الجامع بصورة مضرّة بمصالح الطلبة!». كما أنّ المؤلف لم يتغافل على نضالات الاتحاد النقابي لعملة القطر التونسي ولعلّ خير دليل على ذلك موقف هذا التنظيم النقابي من تدهور ظروف العمال التونسيين وانتشار آفة البطالة في البلاد (الوثيقة 7 ص 168)

أمّا الباب الثالث من الكتاب فجاء موسوما ب « الجمعيات المدنية ودورها في النضال المعادي للاستعمار(1927 – 1956) في 69 صفحة. وقسّمه المؤلف إلى فصلين، ورد الفصل تحت عنوان « النضالات المعادية للاستعمار والحرب» تطرّق فيه الأستاذ الحبيب الكزدغلي إلى دور المنظمات المدنية في مناهضة الاستعمار ومناداتها إلى السلم ومن بين هذه المنظمات اللجنة التونسية للحرية والسلم التي تأسست سنة 1949 وتمّ حلها نهائيا بعد المحاولة الانقلابية على الرئيس الحبيب بورقيبة في تونس سنة 1962.كما أنّ المؤلف لم يتغافل في هذا الفصل عن النضالات النسائية في تونس حيث ركز بالتحليل على مسيرة المناضلة التونسية من أصول يهودية قلاديس عدّة زوجة المناضل جورج عدة التي تعدّ من أبرز مناضلات الحزب الشيوعي في تونس خلال الفترة الاستعمارية إضافة إلى نضالها في العمل الجمعياتي النسائي و الحزبي بتونس لاسيما في منظمة « اتحاد نساء القطر التونسي».

واختتم المؤلف الفصل الأول بتسليط الضوء على صدور مجلة الأحوال الشخصية « تحول يقاس بالسنوات الضوئية» (من ص 216 إلى ص 222) التي كانت بمثابة ثورة تشريعية حرّرت المرأة التونسية من القيود والعادات البالية التي كبلت مسيرتها لعقود طويلة.

وفي الفصل الثاني أورد الكاتب وثائق ونصوص تبرز نضالات الجمعيات المدنية والنساء التونسيات ضد الهيمنة الاستعمارية في تونس، وهي وثائق وليدة لحظتها التاريخية وتزيد هذا العمل الأكاديمي مصداقية وتحفظ هذه النضالات من طيّات النسيان.

ختاما يمكن القول أن الأستاذ الجامعي الحبيب الكزدغلي حاول قدر الإمكان إبراز نضالات الحركة الشيوعية والنقابية والنسائية خلال الفترة الاستعمارية معتمدا المنهج الأكاديمي الصارم حتى لا تدخل طيّات النسيان.

وأمّا أسلوب الكتابة فكان أكاديميا يشعر قارئه منذ التقديم أنه دُوِن من بقلم مختص في التاريخ السياسي المعاصر.فقد انطلق الأستاذ الحبيب القزدغلي في كل أبواب الكتاب من الحدث بشرحه وتحليله والتعمّق فيه ومقارعته بأحداث أخرى بأسلوب نقدي. كما دعم كل باب بمصادر متنوعة من أرشيفات ومنشورات رسمية وليدة لحظتها التاريخية وأُنهيَ بقراءة للصديق المناضل اليساري الحبيب رمضان.

من وحي المجموعة القصصية «أضواء المدينة» للحبيب عبد الجليل المسلمي

صرخة من أجل إرساء «اقتصاد الثقافة والابداع»

د.محمد اللومي

أهداني مؤخرا صديقي "الحبيب المسلمي" نسخة من اصداره الأخير.. متمثلا في مجموعة قصصية, بعنوان "أضواء المدينة".. ضمنها في ما يقارب المائة وستين صفحة من القطع المتوسط.. وتفاجئك على غلاف الكتاب صورة "لشارلي شابلن", تلاحق فكره أسطوانات الابداع السينمائي.. ولا غرابة في ذلك, فأنت لما تجلس الى "الحبيب المسلمي", يبادرك منذ الوهلة الأولى بأمرين أساسيين, وكأنه يعتبرهما في لاوعيه, جزءا لا يتجزأ من طبيعة هويته.. هو عاشق حتى النخاع لشخصية "شارلي شابلن".. الذي يعتبره فيلسوفا صاحب مدرسة فكرية وإبداعية قائمة الذات.. يكاد "المسلمي" يصدع بأن "الشابلينية" تمثل مدرسة فكرية بذاتها..

أما الأمر الثاني فهو ,حسبي, امتداد للأمر السابق.. "فالحبيب المسلمي" متيم بالسينما والمسرح.. فالرجل كان قد درس الإخراج السينمائي ونشط ضمن جمعية السينمائيين الهواة ونوادي السينما.. و"المسلمي" هو ذلك المربي الذي اشتغل بالتدريس ثم بإدارة العديد من المؤسسات التربوية, وفي الان ذاته, العملية التربوية بالنسبة اليه لا تستقيم الا في اطار دفع النشاط الثقافي من خلال الانتاجات المسرحية والسينمائية الموجهة للأطفال والشباب.. لما تجلس الى "المسلمي" تسترجع حنينا دفينا للعودة الى مقاعد الدراسة المفعمة بالادراك والابتكار والابداع.. تنصهر في المنظومة التربوية التي ما فتئت تتمناها لأبنائك وأحفادك.. حين تجلس الى "المسلمي".. تجد نفسك قبالة رجل, ينتقل بسرعة.. في بعض الأحيان بسرعة الضوء, وكما جاء على ظهر الكتاب, من الضوء الى الظل, من الحلم الى الواقع, من الألم الى الفرح , من اليأس الى الأمل.."المسلمي" سريع الخطى.. يتجاوز ويتعثر.. "الحبيب المسلمي" كما عرفته هو رجل يصارع, يبدو ذلك على ملامحه, في اعتقادي أنه لا ينجح في إخفاء ذلك.. ولكن "المسلمي" في أغلب الأحيان , لا ينهزم ولكن هو ينتصر.. ذلك هو "المسلمي" أصيل منطقة "أولاد مسلم" بالضاحية الشمالية الشرقية لولاية "صفاقس".. كما أراه تونسيا.. يجسد الشخصية التونسية في أدق تفاصيلها وفي عميق تجلياتها.. ينعكس ذلك في العمق من خلال أقصوصته الافتتاحية والرئيسية.. "أضواء المدينة"..

"شارع بورقيبة" كان محور الأحداث المتشابكة والمتسارعة.. ما تكاد الأحداث تبرحه حتى تعود الى مسرحه بعد حين.. قد يطول أو يقصر.. حتى وكأني "بالمسلمي" يكاد يتحدث عن "نهج بورقيبة" بدل "شارع بورقيبة".. "نهج بورقيبة".. "منهج بورقيبة".. أو ليس "بورقيبة" هو من كان له التأثير الأعمق- تاريخيا- على الشخصية التونسية على امتداد ثلاثة الاف سنة؟.. ثم تأتي أقصوصة "لقد هزمنا الزهور" لتبرز ما يميز الشخصية التونسية من نزعة التحدي في كنف حسن التفاعل والتعامل مع الثقافات والحضارات الأخرى..

في حيز اخر, أعتبر أن أقصوصتي "أنا وأنت والجبال والقمر" و"عندما يعود الماضي" تمثلان تجسيدا رائعا لقيمة الشرف , كمؤسسة عائلية واجتماعية , في تونس كما في المجتمعات العربية عامة.. والأكيد أن المرأة تمثل في العقل العربي رمز الشرف وعنوانه.. بيد أن المرأة تبرز في أقصوصة "الهاربون من الجنة", كمحور الوجود وسره.. غياب المرأة في زمرة من ساكني الجنة- وكانوا رجالا تواضعت تقواهم في الحياة الدنيا- أجبرهم على المغادرة.. الى حيث المرأة.. وكأني "بالمسلمي" يجزم بأنه لا فرق بين الجنة والنار في غياب المراة.. أو أن الفرق بين الوجود والعدم يمكن اختزاله في وجود المرأة من عدمه.. كما أعتقد أن اقصوصة "الخلود المرير", ربما هي تعالج أيضا جدلية الوجود والعدم, من زاوية أن الوجود لما يصبح أزليا, يتحول الى عدم, لا منقذ له سوى الموت, التي يمكن اعتبارها حينئذ, احياء للوجود أو وجود ما بعد الوجود.. وقد قيل في ما مضى أن الوجود انما هو الفعل..

وها أن التلاميذ في أقصوصة "زمارة العيد", والطلبة في أقصوصة "يا بو ضحكة جنان", يصرون على ملئ الكون وجودا, سعيا وابداعا, من أجل اثبات ذاتهم, ونحت مستقبلهم والمساهمة الفاعلة والمثمرة في مسيرة البلاد التنموية والحضارية.. والأكيد هنا أن "المسلمي" يفي شباب تونس حقه, كطاقة الشعب وعنفوانه.. ولعل ذلك لا يبعث البتة على الدهشة.. "فالمسلمي" هو ذاك المربي, السينمائي, المسرحي, الذي خبر الناشئة في العمق من خلال مسيرته المهنية والثقافية الطويلة.. والتي, في الان ذاته, زودته بالكثير من لطيف الأحاسيس وكريم الوجدان, علاوة على ما يتوفر لديه منها كابن للبادية.. فاذا "بالمسلمي" ينهال على القارئ, من خلال أقصوصات "دموع الثلج "و "عاد معي بالو" و"أنا والشجرة", بمشاهد مؤثرة, تدمع العين وتدميها حينا, وتذيب القلب حينا اخر, وتؤجج العبرات في غالب الأحيان..

شخصيا, تفاعلت بكل تلقائية مع ما جاء في هاته المجموعة القصصية من أحداث ومشاهد, كلما كانت مضمخة بالإثارة والتشويق واللوعة.. ولكنني لا أنكر بأن أكبر تأثر انتابني وأنا أتصفح كتاب "أضواء المدينة"" للحبيب المسلمي", هو ذلك الذي خالجني لما كنت أتعرف الى تفاصيل نشر هاته المجموعة القصصية القيمة.. "دار دان للنشر والتوزيع بالقاهرة" هي التي تولت نشر الكتاب.. أما الإخراج الفني فكان من نصيب "سليل الفراعنة".. في حين تولى" محمد أمين" تصميم الغلاف.. تذكرت في الحين بأن المفكر "هشام جعيط" -رحمه الله- كثيرا ما هرع الى "بيروت" لنشر كتبه.. لا شك وان "القاهرة" و"بيروت" تمثلان عاصمتين مشعتين للثقافة والابداع العربي..

ولكن لماذا هرع "المسلمي" الى "القاهرة" لنشر أحداث مدينته المضاءة بأنوار "نهج بورقيبة"؟.. لماذا يجد "المسلمي" نفسه مجبرا على اختزال أقصوصة "الخلود المرير" في ما يشبه ديباجة تحمل مجرد وجهة نظر شخصية , دون أن يجد الحيز الضروري لجعلها أقصوصة حقيقية كاملة الأوصاف؟.. لماذا لا يستطيع "المسلمي" أن يجاري أدب "نجيب محفوظ" و"احسان عبد القدوس", فتصبح أقصوصة "أضواء المدينة" قصة بذاتها تروي الواقع في المجتمع التونسي ابان "ثورة 14 جانفي "2011؟..فيثنى بذلك أثرها الأدبي بأفق الوثيقة التاريخية.. وكذلك لماذا لا ترتقي أقصوصة "أنا وأنت والجبال والقمر" الى رواية تعكس حياة المحافظة التي لازالت تتمسك بها العديد من الفئات الاجتماعية التونسية؟..

لماذا لا تتحول أقصوصة "يا بوضحكة جنان" الى قصة متكاملة تثير المصاعب التي تعترض الشباب المتعلم فتعيقه عن تكوين أسرة , وتصيبه بالاحباط واليأس؟.. احباط ويأس يستدرجانه نحو "الحرقة" والجريمة والتطرف.. لماذا لا يجعل "المسلمي" من أقصوصة "دموع الثلج" أثرا مستقلا بذاته يطرح الصعوبات والتحديات التي تتربص بالزواج المختلط, في زمن ما بعد الثورات العربية, زمن الهجرة نحو الشمال؟.. لماذا لا تؤثث أقصوصة "و عاد معي بالو" رواية, يقدم الحيوان من خلال تفاصيلها درسا بليغا للإنسان في الوفاء, في عالم طغت عليه المادة والظلم والعنف, حتى تحولت انسانيته الى حيوانية وحتى الى ما دون ذلك؟..

لماذا لا نرى أقصوصة "أنا والشجرة " تستجيب في الحين الى ما يتطلبه هذا العالم الوقح من علاجات, فتتحول الى مسرحية ترفع عن عدم

الاعتراف بالجميل كل ما يمكن أن يجنبه الاشمئزاز والرفض؟.. ماذا يمنع قصص "المسلمي", ذات الأحداث المتسارعة, المتشابكة, المشوقة, الحابسة للأنفاس بين الحين والاخر, من أن تصبح مشاهد لأفلام ومسرحيات, تنقل الواقع التونسي وتعالجه, وتجعله يتفاعل مع الواقع المعولم للقرية الكونية التي نعيش في كنفها؟.. فاذا بالواقع التونسي الصميم, المعالج والمتفاعل, يصدر إقليميا ودوليا, مترجما أو مدبلجا كلما اقتضى الأمر ذلك..

في المحصلة, ما الذي يمنعنا كتونسيين, من أن نساهم بقسطنا في الثقافة والحضارة الإنسانية؟.. معطى وحيد, في اعتقادي, يمكن أن يفي كل هاته التساؤلات مجتمعة حقها في الإجابة المقنعة والمجزية.. غياب "الصناعات الثقافية والإبداعية" في بلادنا.. مع كل أسف, بعد مرور قرابة السبع عقود على الاستقلال, بلادنا لا "صناعة ثقافية وإبداعية" لها.. وهو ما يحيلنا الى أننا ثقافيا وابداعيا لا نزال على هامش مسيرة القرية الكونية.. "فالأمم المتحدة" , والمنظمات والهيئات الدولية التابعة لها ما انفكت تؤكد على الاعتراف "بالصناعات الثقافية والإبداعية".. "اليونسكو" مثلا تعرف "الصناعات الثقافية" بأنها الصناعات التي تنتج وتوزع النتاج والخدمات الثقافية, أي تلك التي يتضح عند النظر في صفتها, أو أوجه استعمالها, أو غاياتها المحددة, أنها تجسد أو تنقل أشكالا للتعبير الثقافي, بغض النظر عن قيمتها التجارية.. اقتصاديا, تساهم "الصناعات الثقافية والإبداعية" بنسبة تتراوح بين 5 و10 بالمائة من الناتج الداخلي في البلدان المتقدمة.. لو كانت تلك حالنا في تونس, لدرت علينا "صناعات الثقافة والابداع" نصف ما تدره علينا "الفلاحة "من مكاسب.. فالعالم المتقدم يتحدث اليوم عن "الاقتصاد الإبداعي", مثلما يتحدث مثلا عن "الاقتصاد الرقمي" أو غيره من الأركان المهمة والرئيسية التي تؤثث المجال الاقتصادي ككل..

"الاقتصاد الإبداعي" هو اقتصاد صلب, فهو لم يتأثر مثلا بالأزمة المالية العالمية لسنة 2008.. "الاقتصاد الإبداعي" هو اقتصاد مصدر.. "الصين" و"الولايات المتحدة الأمريكية" تستحوذان تقريبا على ثلث الصادرات الإبداعية في العالم.. "الاقتصاد الإبداعي" هو اقتصاد مشغل بامتياز.. وبصفة خاصة يمثل "الاقتصاد الإبداعي" تطبيقة نموذجية "للشراكة بين القطاع العمومي والقطاع الخاص".. الدولة تؤهل الكفاءات, وتحافظ على التراث, وتسن التشريعات الراعية للمبادرات الإبداعية, كما تسعى الى التنمية اللوجستية في المجال, تاركة مهمة الإنتاج الثقافي للقطاع الخاص..

"الاقتصاد الإبداعي" هو اقتصاد منتج, وفي الان ذاته هو اقتصاد محرك لبقية القطاعات الاقتصادية الحيوية, كالسياحة والنقل والطاقة والتأمين والضمان الاجتماعي والاشهار والرعاية الصحية والاتصالات والخدمات البيئية والشؤون القانونية وغيرها.. من جهة أخرى, فان "الاقتصاد الإبداعي" هو اقتصاد حضاري بامتياز.. يساهم في تأطير المواهب الصاعدة.. يستقطب الاستثمارات المباشرة في المعرفة والابداع..

مع بداية العشرية الماضية, عدت "فرنسا" قرابة المليوني مبدع, بين مفكرين وفلاسفة وشعراء وروائيين وموسيقيين ومسرحيين , جاؤوا اليها من مختلف دول العالم , للعيش وانتاج المعرفة والابداع فيها.. وهو ما يساهم في تعزيز الدور المركزي "لفرنسا" في الثقافة والحضارة الإنسانية.. "الاقتصاد الإبداعي" هو اقتصاد حضاري بامتياز.. يحافظ على التراث ويسهر على ترويجه.. يعزز مقومات الهوية الوطنية ويعلن اصرارنا على الحفاظ على خصوصياتنا الحضارية بقدر تفتحنا على مكونات الحضارة الإنسانية.. كما يبعث الى العالم برسالة لا لبس فيها, بأن نهجنا في التعايش والتفاهم بين الحضارات والثقافات, لن يقدر على زعزعته, صلف القوى الهمجية مهما علا طغيانها وخبت انسانيتها..

أشكر صديقي "الحبيب عبد الجليل المسلمي" الشكر جزيله لتفضله باهدائي نسخة من مجموعته القصصية "أضواء المدينة".. ولقد استمتعت أيما استمتاع بمتابعة ما جاء في أقصوصاتها من أحداث متسارعة, متشابكة ومشوقة الى حد قطع الأنفاس في بعض الأحيان.. كما أجد أن أقصوصات "المسلمي" تشي بحنين صاحبها الدفين للسينما والمسرح..

فلا غرابة حينئذ, أن أستشرف بأن المجموعة القصصية "أضواء المدينة" هي عبارة عن صرخة يطلقها "المسلمي" من أجل إرساء "صناعة ثقافية وإبداعية" في بلادنا.. لاسيما وهو الذي نشر أثره انطلاقا من "القاهرة".. وشخصيا أعتبر أن إرساء ما يسمى "بالاقتصاد الإبداعي" يمثل ضرورة قصوى في هاته المرحلة المفصلية من تاريخ بلادنا.. "فالاقتصاد الإبداعي" قادر- من دون أدنى شك- أن يوفر القيمة المضافة على مستوى الناتج الداخلي.. و"الاقتصاد الإبداعي", لا غنى عنه من أجل أن تساهم تونس بقسطها في الحضارة الإنسانية, وتحسن التفاعل معها اخذا وعطاء..

لذا فاني أقترح على "وزارة الثقافة", صحبة باقي أجهزة الدولة ذات النظر, بعث "بنك للاستثمار الثقافي والإبداعي".. و"وكالة وطنية للتسويق الثقافي والإبداعي".. و"صندوق للحيطة الاجتماعية لفائدة قطاع الثقافة والابداع".. فكفانا سياسات ثقافية ريعية.. لا تنتج سوى مهرجانات موسمية في تراجع مطرد.. ولا تسمح للمثقف والمبدع سوى باشتهاء "العنبة".. فقد حان الوقت لكي يوفر المثقف والمبدع لنفسه ولوطنه "العنقود".. حتى اذا مات.. أتته الورود والزهور من كافة أصقاع العالم..

صورة تتحدّث

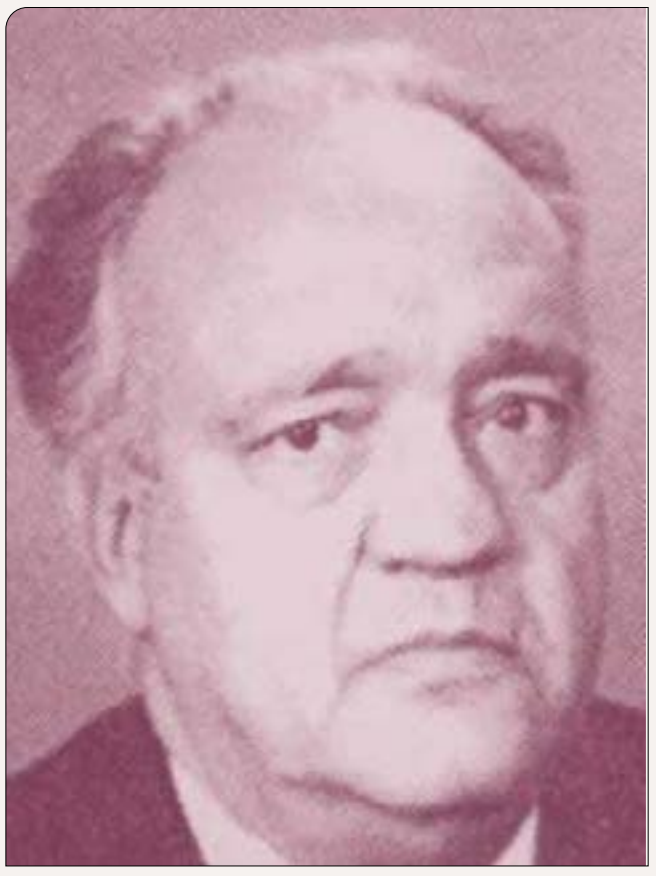

عبد المجيد بن جدو

- عبد المجيد بن العربي بن عبد القادر بن جدو (ولد في 15 أوت 1918 - توفي سنة 1994)
- تلقى تعليمه في المدرسة العرفانية والمدرسة الصادقية، ثم بجامع الزيتونة (1936)، وقبل أن يكتب شعرًا عكف مدة على دراسة الشعر والموسيقى.
- عمل مدة بالصحافة، ثم انتقل للعمل في الإذاعة التونسية (بداية من سنة 1946).
- شارك في تأسيس الجمعية التونسية للمؤلفين والملحنين، ثم تولّى رئاستها (1972 - 1984)، ثم كان عضوًا في مجلس إدارتها حتى عام 1987 .
- قدم الكثير من البرامج الإذاعية والتلفزيونية، منها «متحف الأغاني»، و«ليلة من ليالي تونس القديمة»، و«أفلام وأنغام».
- هو شاعر ذاتي النزعة، حافظ على أوزان الخليل، تنوعت قوافيه، ومالت قصائده إلى الوطنية، وغلب عليها الغنائية، نظم الأغاني مما كان له الأثر على لغته التي اقتربت من لغة العامة التقريرية والمباشرة.
- كتب العديد من الأغنيات والأناشيد، ومن أشهرها "نشيد بني وطني" الذي غنته المرحومة عليّة، ولحنه المرحوم الشاذلي أنور. كما ألف لعبد الحليم حافظ أغنية يقول مطلعها "يا مولعين بالسهر هنا يغني العندليب ..."

نص لأسامة الرّاعي...

«في معرفة السّبيل إلى الفلسفة لغير الفلاسفة»

لويس ألتوسير

ترجمة : عبد الوهاب البراهمي
متفقد عام للتربية سابقا (فلسفة)

«هل من الصدفة حقّا أن تكون الفلسفة فعلا، مرتبطة إلى هذا الحدّ بتدريسها، وبأولئك الذين يدرّسونها؟ وهل من الصدفة أن لا تصلح الفلسفة سوى لتعليمها الخاص فحسب، ولا لشيء آخر؟ وإذا كانت لا تصلح فقط إلا لتعليمها الخاص ، فما يعني ذلك يا ترى؟»
(ل. ألتوسير)

«في أي معنى يستقيم القول بأنّ : كل إنسان فيلسوف»؟
«ماذا يصنع إذن أستاذ الفلسفة؟ إنه يعلّم تلاميذه التفلسف، بتأويل النصوص الكبرى أمامهم أو المؤلفين الكبار للفلسفة، بان يلهمهم الرغبة في التفلسف . وإذا ما التمس في نفسه قوّة ، أمكنه أن يتقدّم درجة ويمرّ إلى التأمّل الشخصي، أي إلى مخطّط فلسفة أصيلة.»
(ل. ألتوسير)

****

ما ذا يقول « غير الفلاسفة» ؟

يتوجه هذا الكتاب إلى كلّ القرّاء الذين يعتبرون أنفسهم ، أصابوا أم أخطئوا، من « غير الفلاسفة»، والذين يريدون مع ذلك أن يكوّنوا فكرة عن الفلسفة. ماذا يقول « غير الفلاسفة»؟ العامل والفلاح والأجير:» لا نعرف شيئا من الفلسفة، لم تخلق لأجلنا. إنما هي لمثقفين مختصين. إنها جدّ صعبة . ولا أحد حدّثنا عنها قط: لقد غادرنا المدرسة قبل أن نتعلمها.» بينما يقول الإطار والموظّف والطبيب، الخ:» نعم تابعنا درس الفلسفة. لكنه مفرط في التجريد. والأستاذ عارف بصنعته، لكنه كان غامضا. فلم نحتفظ بشيء منها. وبالمناسبة، فيم تصلح الفلسفة ؟ « ويقول آخر:» عفوا! لقد اهتممت بالفلسفة كثيرا. يجب أن نقول بأنه كان لنا أستاذ أخّاذ. وكنا نفهم الفلسفة بصحبته. لكن ، انصرفت منذ ذلك الحين إلى تحصيل لقمة العيش ماذا نفعل إذن ، ليس لليوم سوى 24 ساعة: لقد فقدت صلتي بها. مع الأسف. « وإذا ما سألتهم جميعا:» لكن عندئذ، بما أنكم لا تعتبرون أنفسكم فلاسفة، فمن من الناس في نظركم من يستحقّ اسم فيلسوف؟»، فسيجيبون، بصوت واحد:» إنما هم أساتذة الفلسفة!». وهذا عين الصواب : فبخلاف الناس الذين ، لأسباب شخصية ، أي من أجل متعتهم أو لنفع ما، يستمرّون في القراءة لكتّاب فلسفة، في» ممارسة الفلسفة»، فإنّ من يستحقّ اسم فيلسوف هم فعلا أساتذة الفلسفة. يطرح هذا الأمر بالطبع سؤالا أول، أو بالأحرى أثنين.

1. هل حقّا من الصدفة أن تكون الفلسفة فعلا، مرتبطة إلى هذا الحدّ بتدريسها، وبأولئك الذين يدرّسونها؟ يجب أن نعتقد أن الأمر ليس كذلك، إذ في النهاية ،لا يعود هذا الزواج فلسفة – تعليم إلى أقسام الفلسفة عندنا، لا يعود إلى الأمس: فمنذ بدايات الفلسفة، كان أفلاطون يدرّس الفلسفة، وأرسطو يدرس الفلسفة ... وإذا كانت هذه الزيجة فلسفة – تعليم (تدريس) ليست نتاج الصدفة، فهي تعبّر عن.ضرورة خفيّة. وسنحاول اكتشافها.

2. لنذهب إلى أبعد من ذلك. بما أن الفلسفة في الظاهر لا تصلح لشيء مهمّ في الحياة العملية، وبما أنها لا تنتج لا معارف ولا تطبيقات ، فيمكننا التساؤل ؛ لكن لم تصلح الفلسفة؟ ويمكننا حتى أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال : هل من الصدفة أن لا تصلح الفلسفة سوى

لويس ألتوسير 1918 – 1990

لتعليمها الخاص فحسب، ولا لشيء آخر؟ وإذا كانت لا تصلح فقط إلا لتعليمها الخاص، فما يعني ذلك يا ترى؟ سنحاول الإجابة عن هذا السؤال الصعب. ترون كيف تسير الأمور مع الفلسفة . فيكفي أن نفكّر في أقلّ وجوهها(وهنا كون الفلاسفة هم جميعهم تقريبا أساتذة فلسفة)، حتى تنبجس، دون أن تترك لنا الفرصة لاستعادة أنفاسنا، أسئلة غير منتظرة ومدهشة. وقد قدّت هذه الأسئلة على نحوٍ يُلزمنا بطرحها دون أن نمتلك وسائل الإجابة عنها: فحتى نجيب عنها علينا القيام بمنعطف طويل. وهذا المنعطف ليس شيئا آخر سوى الفلسفة ذاتها. على القارئ إذن أن يتحلّى بالصبر . فالصبر فضيلة فلسفية. لنلق نظرة خاطفة، حتى نتقدّم، على هؤلاء البشر: أساتذة الفلسفة. لهم أزواج وزوجات مثلي ومثلك، وأطفال إذا ما رغبوا في ذلك. يأكلون وينامون يتنفسون ويموتون مثل الجميع. يمكن أن يحبوّا الموسيقى والرياضة وممارسة الفلسفة أو لا. اتفقنا: فليس هذا ما يجعلهم فلاسفة. إنّ ما يجعلهم كذلك، هو أنهم يعيشون في عالم لوحده، في عالم مغلق: مكوّن من أعمال كبرى في تاريخ الفلسفة. ويبدو أن ليس لهذا العالم من خارج. فهم يحيون مع أفلاطون وديكارت وكانط وهيجل وهوسرل ومع هيدجر ، الخ. ماذا يصنعون؟ أتحدّث عن أفضلهم بالطبع: يقرؤون ويعيدون قراءة مؤلفات كبار الكتاب، ويعيدون قراءتها باستمرار، بمقارنتها فيما بينها، وبتمييزها عن بعضها البعض عبر التاريخ، لفهمها جيّدا. إنه لأمرٌ مدهش مع ذلك، هذه الإعادة الدائمة للقراءة . فما من أستاذ رياضيات أو فيزياء الخ قطّ ، سيعيد باستمرار قراءة كتاب في الرياضيات أو الفيزياء، فلن « يجترّوها» على هذا النحو. إنهم يقدمون المعارف ، ويفسرون أو يبرهنون، نقطة وانتهى الأمر، ولن نعود إلى ذلك. ومع ذلك فإنّ ممارسة الفلسفة هي العود اللانهائي إلى النصوص. يعرف الفيلسوف ذلك جيدا، و فوق هذا يفسّر لك لماذا! هو أن الأثر فلسفي لا يفصح عن معناه، عن رسالته، في قراءة واحدة؛ وهو مفعم بالمعنى، وبالطبيعة نبع لا ينفد ولانهائي، وله دوما قول جديد بالنسبة إلى من يعرف كيف يؤوّله. ليست ممارسة الفلسفة مجرد قراءة ، وليست برهنة. إنما هي تأويل ، تساؤل وتأمل: إنها تريد أن تقوّل الأعمال الكبرى ما تريد قوله، أو تقدر على قوله ، وفي الحقيقة الإشكالية التي تحملها أو بالأحرى التي تشير ، بصمت ، صوبها. وبالنتيجة : هذا العالم بلا خارج هو عالم بلا تاريخ. مكوّن من مجموع الأعمال الكبرى التي كرّسها التاريخ، رغم كونه عالم بلا تاريخ. وذلك بدليل أن : الفيلسوف يستدعي، لتأويل فقرة من كانط، أفلاطون كما هوسرل، كما لو لم يكن هناك 23 قرنا بين الأوّلَين وقرنا ونصف بين الأول والأخير، كما لو من غير المهمّ وجود السابق واللاحق. فجميع الفلاسفة، بالنسبة إلى الفيلسوف هم معاصرين. يلبّون نداء بعضهم بعضا من خلال الصدى، لأنهم لا يجيبون في الأصل إلاّ عن نفس الأسئلة، التي تصنع الفلسفة. من هنا كانت الأطروحة المشهورة « الفلسفة أبدية». ومثلما نرى ، فحتى يكون من الممكن إعادة القراءة الدائمة ، وفعل التأمل غير المنقطع، يجب على الفلسفة أن تكون في نفس الوقت لامتناهية (أي ما «تقوله» لا ينضب) وأبدية (كل الفلسفة كامنة في كلّ فلسفة). تلك هي قاعدة ممارسة الفلاسفة ، أريد آن أقول أساتذة الفلسفة. وإذا ما قلتم لهم ، في هذه الظروف، إنهم يعلمون الفلسفة ، فخذوا حذركم! إذ سيلفتون النظر إلى أنهم لا يعلمونها مثل الأساتذة الآخرين، الذين يحملون لتلاميذهم معارف للحفظ، أي نتائج علمية (مؤقتا) نهائية. فالفلسفة لا تُتعلّم بالنسبة إلى أستاذ الفلسفة الذي فهم جيّدا كانط . ولكن ماذا يصنع إذن أستاذ الفلسفة؟ إنه يعلّم تلاميذه التفلسف، بتأويل النصوص الكبرى أمامهم أو المؤلفين الكبار للفلسفة ، بان يلهمهم الرغبة في التفلسف (يمكننا أن نترجم تقريبا هكذا الكلمة الإغريقية فيلو- صوفيا PHILO-SOPHIA). وإذا ما التمس في نفسه قوّة أكثر ، أمكنه أن يتقدّم درجة ويمرّ إلى التأمّل الشخصي، أي إلى مخطّط فلسفة أصيلة. وهذا دليل حيّ على أن الفلسفة تنتج ماذا؟ الفلسفة ، ولا شيء آخر ، وأنّ كل هذا يجري في عالم مغلق. لا شيء يثير الدهشة إذا كان عالم الفلاسفة مغلقا: طالما كانوا لا يفعلون شيئا للخروج منه، وطالما كانوا ، على العكس، ينفذون شيئا فشيئا إلى باطن المؤلفات ، ويحفرون هوّة واسعة بين عالمهم وعالم البشر، الذين ينظرون إليهم من بعيد مثلما ينظرون إلى حيوانات غريبة...ليكن ، ولكن سيقول القارئ بأننّا وصفنا وضعية قصوى ، وميلا أقصى يوجد بالتأكيد، ولكن الأمور لا تسير

فلسفة

دوما على هذا النحو. وبالفعل، فالقارئ معه الحقّ: فما وقع وصفه، هو شكل خالص نسبيا، هو النزعة المثالية، والممارسة المثالية للفلسفة. لكن يمكن أن نتفلسف على نحو آخر تماما. والدليل قائم في التاريخ ، فبعض الفلاسفة ، لنقل المادّيين ، تفلسفوا على نحو آخر تماما، وأن أساتذة الفلسفة يحاولون أيضا الاقتداء بهم. فهم لا يريدون أن يكونوا جزءا من عالم مغلق على ذاته. هم يخرجون منه لسكنى العالم الخارجي: فيريدون أن يقوم بين عالم الفلسفة (الذي يوجد) وبين العالم الواقعي ، تبادل مثمر. يتنزّل هذا بالنسبة إليهم في مبدآ الفلسفة ذاتها : بينما يعتبر المثاليون أنّ الفلسفة هي قبل كلّ شيء نظرية، يرى الماديون بأن الفلسفة هي قبل كل شيء تطبيقيّة ، تتأتّى من العالم الواقعي وتُنتج ، دون معرفة بذلك ، آثارا ملموسة في العالم الواقعي. لاحظوا أن الفلاسفة الماديون يمكن لهم وبالرغم من معارضتهم العميقة للمثاليين ، أن يكونوا لنقل « على اتفاق» مع خصومهم في عدّة نقاط . مثلا في أطروحة :» الفلسفة لا نتعلّمها». لكن لا يعطون لذلك نفس المعنى. إنّ التقليد المثالي يدافع عن هذه الأطروحة بإعلاء الفلسفة على المعارف ، وبدعوة كلّ واحد إلى أن يوقظ في نفسه الإلهام الفلسفي. أما التقليد المادّي فلا يسمو بالفلسفة على المعارف، إنما يدعو البشر إلى البحث في خارج ذواتهم، في الممارسات، عن المعارف والصراعات الطبقية ،- ولكن دون الإعراض عن الأعمال الفلسفية- لتعلّم التفلسف. لنضرب مثالا آخر، يتمسّك به المثاليون تمسكّهم بأبصارهم : وهو السمة الذي تميز الأعمال الفلسفية ، كونها معين لا ينضب، والذي يميّز بالطبع فلسفة العلوم...يوافق الماديون على الإقرار بأنه لا يمكن ردّ أثر فلسفي إلى حرفيّته المباشرة ، ولنقل لسطحه، إذ هو مفعم بالمعنى. بل يذهب المادّي أبعد من ذلك: فيعترف ، وهو في ذلك كالمِثالي بأنّ هذا الامتلاء بالمعنى يعود إلى « طبيعة الفلسفة»! ولكن لما كانت المادية تحمل فكرة مغايرة للفلسفة عن المثالية ، فإن هذا الامتلاء بالمعنى لأثر فلسفي لا يعبّر لديها عن الطابع اللانهائي للتأويل، بل عن التعقيد الأقصى للوظيفة الفلسفية. وإذا كان أثرا فلسفيا ما هو بالنسبة إليها ممتلئا معنى ، فذاك لأنه يجب عليها ، حتى توجد كفلسفة ، توحيد عدد كبير من المعاني. هناك فارق : لكن نتائجه ثقيلة. لنضرب مثلا أخيرا: الأطروحة المثالية الشهيرة بأنّ كل الفلسفات هي كما لو كانت معاصرة لبعضها بعضا، وأنّ الفلسفة « أبدية» ، أو أنه ليس للفلسفة تاريخ. يمكن للمادية ، بالرغم من مفارقية هذا الإقرار الشديدة ، أن « توافق « بتحفّظ. وبتحفّظ، إذ أنها تعتقد أنّه ثمّة تاريخ يحدث في الفلسفة وانه تقع حوادث ونزاعات وثورات واقعية تغيّر « مشهد» الفلسفة. غير أنّ الماديّة تقول بطريقتها ، ردّا تقريبا على هذا التحفّظ، بأنّه « ليس للفلسفة تاريخ «، من حيث أن تاريخ الفلسفة هو معاودة لنفس النزاع الجوهري، ذلك الذي يقابل النزعة المادية بالنزعة المثالية في كلّ فلسفة. يوجد فارق : لكن تبعاته جسيمة. نحتفظ من هذه الأمثلة السريعة بأنّه إذا كانت الفلسفة واحدة ، فإنه يوجد ، على أقصى حد، نوعين مختلفين متقابلين من التفلسف، وممارستين متناقضتين من الفلسفة: الممارسة المثالية ، والممارسة الماديّة. لكننا نحتفظ بالرغم من الوجه المفارقي لهذا الواقع، بأنّ المواقف المثالية تطفو على المواقف المادية والعكس بالعكس. كيف يمكن للفلسفة أن تكون واحدة، وتسلّم نفسها لتوجّهين متناقضين، التوجّه المثالي والتوجّه المادّي؟ كيف يمكن لخصوم فلسفية أن يكون لهم شيء ما مشترك، بما أننا نرى أن بعضهم يتعدّى على بعض؟ ومرّة أخرى ، نحن نطرح أسئلة دون القدرة على أن نقدم لها أجوبة مباشرة. يجب أن نمرّ بالمنعطف الكبير. فالصَّبْرَ إذن، صَبْرٌ ولكن سرعان ما تحصل المفاجأة. إذ ماذا لو وُجدت «طريقة أخرى في التفلسف» غير التي للأساتذة المثاليين، أي ممارسة للفلسفة، هي أبعد عن أن تسحب الفيلسوف من العالم، تضعه في العالم، وتجعله أخا للجميع البشر- وماذا لو وجدت ممارسة، هي أبعد من أن تجلب الحقيقة للبشر من أعلى ، في لغة غير قابلة للفهم بالنسبة إلى العمّال، ممارسة تعرف كيف تصمت وتتعلم من البشر، ومن ممارساتهم ومن آلامهم وصراعاتهم، أفلا يمكن أن تقلب الفرضية التي تبنّيناها رأسا على عقب؟ لا. فقد سألنا بالفعل أناسا مختلفين في العمل والموقع الاجتماعي. فحدّثونا جميعهم عن أساتذة الفلسفة. هذا طبيعي: الفلسفة تدرّس في الثانوي والتعليم العالي. إنهم أي هؤلاء المُسْتَجوبين، يطابقون في تواضعهم واختلافهم الفلسفة مع تعليمها. ماذا يفعلون، غير إعادة القول على طريقتهم بما تصرّح به المؤسسات الموجودة في مجتمعنا، من أنّ الفلسفة هي ملكية أساتذة الفلسفة؟ إنهم لم يتجرؤوا، وهم متخوفون من هذا الأمر الواقع للنظام الاجتماعي، ومبهورون بصعوبة فلسفة الفلاسفة، على المساس بهذا الحكم المسبق الفلسفي. إنّ تقسيم العمل اليدوي والعمل الفكري ونتائجه العملية، وهيمنة الفلسفة المثالية ولغتها بالنسبة إلى العارفين، قد أبهرتهم أو أحبطتهم. فلم يتجرّؤوا على قول: لا ، ليست الفلسفة خصّيصة أساتذة الفلسفة. لم يتجرّؤوا على القول ، مع الماديّين (مثل ديدرو ولينين وقرامشي) :»كلّ إنسان فيلسوف». يتحدّث الفلاسفة المثاليون للجميع وباسم الجميع. يعتقدون أنهم يمسكون بحقيقة كل الأشياء . أما الفلاسفة الماديون فهم على خلاف ذلك صامتون: يعرفون كيف يسكتون، للاستماع إلى البشر. هم لا يعتقدون في ملكية حقيقة كل الأشياء. ويعرفون أنهم لا يمكن أن يصيروا فلاسفة إلا تدريجيا، بتواضع، وأنّ فلسفتهم تأتيهم من خارج: فيصمتون حينئذ ويستمعون. وأنه ما من حاجة للذهاب بعيدا لمعرفة ما يسمعون، حتى نلاحظ أنه يوجد لدى الشعب، والعمال الذين لم يتلقّوا تعليما فلسفيا، ولم يكن لهم قطّ « معلمّا « يتبّعونه في فنّ التفلسف، يوجد ضرب من الفكرة عن الفلسفة، دقيقة جدّا حتى نقدر على إثارتها والحديث عنها. وهو ما يعني، مثلما يؤكّد ذلك المادّيون بأنّ « كل إنسان فيلسوف»، حتى لو كانت الفلسفة التي يتمثّلها غير دقيقة ، نشكّ في ذلك! فلسفة كبار الفلاسفة والأساتذة. ما عساها تكون هذه الفلسفة « الطبيعية»(العفوية) لدى كلّ إنسان؟ لو طرحتم السؤال على من تعرفون ، على الناس «العاديين»، فقد يستغربون، بتواضع ، لكن سينتهون إلى الاعتراف :» نعم، لديّ فلسفة خاصّة بي». ماذا؟ أي طريقة في « النظر إلى الأشياء». ولو دفعتم بالسؤال قدما ، فسيقولون:» يوجد في الحياة أشياء أعرفها جيّدا ، عن تجربة مباشرة: مثلا ، عملي والناس الذين أعاشرهم والبلدان التي زرتها أو التي حصّلت عنها معلومات في المدرسة أو في الكتب. لنسمّي ذلك كله معارف. لكن توجد في العالم أشياء كثيرة لم أرها ولا أعرفها. وهذا لا يمنعني من أن أكوّن عنها فكرة. وفي هذه الحالة ، فأنا أملك أفكارا تتجاوز معارفي: مثلا عن أصل العالم ، وعن الموت والألم والسياسة وعن الفنّ وعن الدين . بل أكثر من ذلك : لم تأت هذه الأفكار من فوضى مبعثرة يمينا وشمالا ومنفصلة عن بعضها البعض وغير متماسكة . لكن لا أعرف لماذا ، تتوحّد هذه الأفكار شيئا فشيئا، بل يحدث شيء غريب: هو أنني جمعت كل معارفي، أو هكذا تقريبا، تحت غطاء هذه الأفكار العامّة، وتحت وحدتها. فأكون عندئذ قد صنعت ضربا من الفلسفة ، رؤية لمُجْمل الأشياء ، لتلك التي أعرفها ، كما للتي لا أعرفها. إنّ فلسفتي هي معارفي موحّدة تحت غطاء أفكاري «. وإذا ما تساءلتَ: فيم تصلح هذه الفلسفة؟ أجابك:» الأمر بسيط ، لتوجيهي في الحياة. إنما بمثابة بوصلة : تشير إليّ بجهة الشمال . لكن أنت تعرف ، أن كل منّا يصنع فلسفته الخاصّة.» هذا ما سيقوله إنسان عاديّ. لكن سيضيف مُلاحظ ما النقاط التالية. سيقول بأنّ كلّ فرد يصنع فعلا» فلسفته الخاصّة»، لكن يجتمع ،على صعيد التجربة، أغلب هؤلاء الفلاسفة، فلا تكون بينهم سوى فوارق شخصية حول أساس فلسفي مشترك، انطلاقا منه ينقسم الناس في» أفكارهم». سيقول بأنه يمكننا أن نصنع ضربا من الفكرة عن الأساس المشترك لهذه الفلسفة « الطبيعية/ العفوية» لكل إنسان، حينما نقول مثلا عن أحدهم ، بحسب الطريقة التي يتحمّل بها المعاناة أو المحن التي تؤلمه كثيرا، وأنه يأخذ كلّ مناحي الوجود « بفلسفة» بمنحى فلسفي؛ أو إذا ما استقامت حياته ، أن يعرف كيف يستفيد من خيراتها دون إسراف. وفي هذه الحالة ، فهو يُقيم مع الأشياء ، سواء كانت سيئة أم حسنة ، علاقات مقدَّرَة متبصّرة ومتحكّم فيها وحكيمة: فنقول عنه حينئذ بأنّه « فيلسوف». ماذا نجد في عمق هذه « الفلسفة»؟ لقد فسّر قرامشي ذلك جيدا حينما تحدّث عن : فكرة معينة عن ضرورة الأشياء (علينا الاضطلاع بها)، وبالتالي معرفة معينة ، من جهة ، وطريقة معينة في استخدام هذه المعرفة في المحن أو أفراح الحياة، وبالتالي، حكمة معينة من جهة أخرى. إنه إذن اجتماع سلوك نظري معين وسلوك عملي معا: أي حكمة معينة. نجد إذن في هذه الفلسفة «العفوية» للبشر العاديين، مبحثين كبيرين يخترقان كامل تاريخ فلسفة الفلاسفة: تصوّر معيّن لضرورة الأشياء، لنظام العالم وتصوّر معيّن للحكمة الإنسانية تجاه سيرورة العالم. من سيقول بأنّ هذه الأفكار ليست بعدُ فلسفية؟ غير أنّ ما هو ملفت للانتباه فعلا هو أن في هذه التصوّر طابعه المتناقض والمفارقي. إذ، هو في الأصل، جدّ فعّال»ACTIVE : يفترض بأنّ الإنسان يستطيع شيئا ما قبالة هذه الضرورة للطبيعة والمجتمع، ويفترض تفكيرا عميقا وتركيزا على الذات، وتحكّما كبيرا في الذات في الحالات القصوى للألم أو في الحالات اليسيرة للسعادة. لكن، في الواقع، حينما لا يكون هذا السلوك « مهذّبا» ومتحوّلا ، بواسطة الصراع السياسي مثلا، فإنّه يعبّر غالبا عن اللجوء إلى الانفعال PASSIVITÉ . إنه جيّد ، لو أردنا ، نشاطا للإنسان، لكن قد يكون انفعاليا بعمق ومحافظا. إذ لا يتعلّق الأمر ، في هذا التصوّر الفلسفي « العفوي» بالتصرّف موضوعيا في العالم، مثلما يريد ذلك بعض الفلاسفة المثاليين، أو « تغييره» كما يريد ماركس، بل بقبوله، بتجنّب كلّ إفراط فيه. إنه أحد معاني كلمة التقطت من فم « إنسان عادي» : « لكلّ فلسفته الخاصّة»، في عزلته (« كلّ في ذاته»). من أجل ماذا؟ كي يتحمّل عالما يدمّره أو يمكن أن يدمّره. وإذا ما تعلّق الأمر فعلا بالتحكّم في مسار الأشياء ، فليس بالخضوع له أو بقبوله « بفلسفة» ، بل للخروج منه في حال أفضل من الحرص على تغييره . وباختصار ، إذا ما تعلّق الأمر بالتلاؤم مع ضرورة تتجاوز قوى الإنسان ، و أنه يجب عليه العثور على وسيلة للقبول بها، بما انه لا يستطيع فعل شيء لتغييرها. هو نشاط إذن، لكنه انفعالي؛ نشاط إذن لكنه خاضع . لا أفعل شيئا هنا سوى تلخيص فكر فيلسوف ماركسي إيطالي هو غرامشي عن هذه المسألة. ويمكنكم النظر، على أساس هذا المثال ، إلى كيفية تفكير فيلسوف ماديّ. فهو لا «يروي لنفسه حكايات» ، ويتمسّك بخطاب حماسيّ، ولا يقول « كلّ البشر ثوريون» ، بل يترك الناس يتكلّمون، ويقولون الأشياء كما تكون. نعم، يوجد أساس للخضوع للاستسلام لدى الحشود الكبيرة التي لم يحصل لها وعي بالصراع أو حتى لدى من كانوا مقهورين، لكنهم عرفوا الفشل. يتأتى هذا الاستسلام من أقاصي التاريخ الذي كان دوما تاريخ المجتمعات الطبقية ، وبالتالي من الاستغلال والقمع. لأفراد الشعب، وهم صنيعة هذا التاريخ ، أن يثورا ؛ ولما كانت الثورات منهزمة دوما ، فليس لهم سوى الاستسلام والقبول « فلسفيا» بضرب من « الفلسفة»، بالضرورة التي يتقبّلونها . وهنا سيظهر الدين.»

لويس التوسير «الطريق إلى الفلسفة لغير الفلاسفة» ،نص أعده جورج م.غوشكاريان، وتمهيد لغيوم سيبارتان - بلان. سلسلة « بيف».2014 PUF سلسلة « آفاق نقدية».

سعيف عليّ... الشّعريُّ مُجرّدًا من الجناس من وصفٍ إلى وصف

إطلالةٌ على «بابُ الّذي لا يرى»

منذر العيني

الابتعادُ عن مردوديّات الانفعال جرّاء ايقاعاتٍ مصكوكةٍ حركةٌ ناتئةٌ قد تتحوّل إلى ازدراءٍ ما، لكنّه عناد المؤلّف في اختراقاتٍ غير منتظرةٍ، ذلكَ ما يجعلُ للاكتشاف رحلةٌ عمياء،لا تدري الملاحقةُ إلى أيّ جهةٍ توصلنا التّأويلاتُ وقد تَعِدُ بالانفتاح في كلّ مرّةٍ نعثر على معنًى قد يتلاءمُ بالوعدِ بالتّحفيزِ على المداومةِ، تلك هيَ أيضا احتفاليّةُ الشّعر المعاصر وقد أعلنت صاحبة نوبل الجديدة هان كانغ في بيانها أنّه لا سبيل إلى الوصول إلاّ محاولةُ الوصول.

ما قد تعدُ به الكتابة الشّعريّة التّونسيّة في آدائها المستمرّ الّذي ما يفتأ يفتحُ البابَ تلو الآخر تماما مثلما هيّأته كتابة شاعرنا سعيف علي في سائر مخطوطاتِه ينفَذُ ويفتَحُ ويفتَحُ وينفُذُ، ولا يستقرّ على نحتيّاتٍ واحدة تتراءى في مستقرّاتٍ ما وصلته حركةُ النصّ تتغامزُ من بعيدٍ ومن قريبٍ، تلك استراتجيّاتها اللاّمتناهية، هل نعلمُ ما ستؤولُ إليه هذه المعارضاتُ المعارِضة في سياسات الحدس الشّعري يعلو بنا ونعلو به عن منطق الخطابات الأخرى من شرائح المفكّر فيه فلسفة ومسرحا فلقاتٍ من لغة المؤرّخين والمناطقة.

تقديم:

المسيرة تستمرُّ على نحو من نضاليّة شاءت أن تتعاضد في كلّ مشواره الإبداعيّ في تصنيفٍ أوّلي هو الشّاعر سعيف علي من شعراء تسعينات القرن الماضي بكلّ تجليّاتها الفنيّة انطلاقًا من مشاركاتٍ في ملتقياتٍ أدبيّة بادرها بصوتٍ يتمايزُ من حلقةٍ إلى أخرى وقد نال أستاذيّته في الأداب واللّغة العربيّة ساعدته على تقصّي قراءاته المتنوّعة من دروب شتّى يتلقّف أسئلة ولا يجيبُ، ويجيبُ على نحوه منغمسًا في أسئلة تبني تجربته مستأنسا برفيقه المرحوم النّاقد الاستاذ محمّد صالح بن عمر الّذي تفطّن إلى حسّه المخصوص في تناوله العين الشّعريّة تتناظر مع الأشياء ومع الحركات السّكنات في منحوتاته الّتي يمرّ عليها فتبدو حيّةً مترفةً بإيقاعاتٍ هي الّتي تكوّن لبنات الشّعر في تعبيريّتها البنائيّة، وهو ما يفتأُ يشخصُ إلى دوائر من شعريّاتٍ تونسيّة مغايرة في حضوره الحياتي بهدوئه ودقّة مشاركته في مجالات المتابعات والإنصاتِ إلى فرقٍ من شعراء تونس يتناسلون من نصوص ملتزمة إلى نصوصٍ أكثر تجريدًا وأكثر إبعادً، حياتهُ هي هكذا نقدّمها في متوازيات مع إنتاجاته الزّاخرة « نصفُ بيمول من مقام الرّاست_ ضواحي سلّة الخيزران_ سحابةٌ تائهة_ الفشل في كسر حبّة اللّوز_ محاولة البقاء خارج ساعة يدويّة_ طينيّات_ سيرة القوّال.. « إصدارتٌ نوّعت من تفاعله الفكري حول قصيدة النّثر منجزًا لا يقول بروحه، ولكنّه يقول بروحه أيضا الّتي تتماهى مع الدّاخل والخارج، وهو من ملتقى إلى ملتقى يعبّر عن تمسّكه اللامشروط بهذه الدّافعيّات جميعِها يمكنها أن تسم الشّعر بكل مقتضياته الايقاعية ما ظهر منها وما بطن، أن تسمه فعلاً رائدًا يؤطّر مفاهيم ويحضن شوارد ويحتفل من المنسيّ رقصه المغمور في سيرة أو في أخرى، تلك هي طريقته دائما في التّعاطي مع تتداوله حلقات الاحتفاليّات التّونسيّة في التّظاهرات التّي يحضرها ناشدا ومتتبّعا» ملتقى العصاميين سوسة، ملتقى زغوان، ملتقى قليبيّة، ... 24 ساعة شعر..» كما تعدّدت إسهاماته في كتابة تراسليّة على الشّبكة التواصليّة اعتنت بمعيشه أو بتقاطعه مع صديقيْه في حديقة النثّر الشّعرية: الفقيدة الشاعرة سامية ساسي ورفيقها الفيلسوف الشاعر يوسف خديم اللّه وقد مثّلت هذه اللّقاءات لبنات متجدّدة في حركة لافصاح مكنونات النّثر الشّعري السرّي تُحدث متغيراتٍ في مراسم التقبّل المعاصرة قد ترفد ما سيحدثُ في مستقبل الشّعريّة التّونسية، إضافة إلى ردّة فعله مع حميمه الشّاعر ايكاروس عبد الفتّاح بن حمّودة وجهان متعاضدان في إصلاح المتروك من فاعليّة النّظرة، من فاعليّة الفكرة تبني فكرتها حول الشّعر، يُكبِّر باسمه في إثراء السّاحة الشّعريّة بتلقّف الأسماء وتشجيعها حتّى تتكاثر وتعبر أضواء وأضواء، يقول عنها سعيف إنّها الآن إضاءاتٌ جهريّة لها إمضاءاتها الخاصّة، لذلك فهو محبٌّ لكلّ من يحبُّ الشّعر. سعيف الّذي لا يَظهر كثيرًا ولكنّه يسعى دائما لتأثيث طاولةً للنّقاش وللمداولة حول ما يمكن أن تتماثل حوله حركةُ «شعر» التّونسيّة.

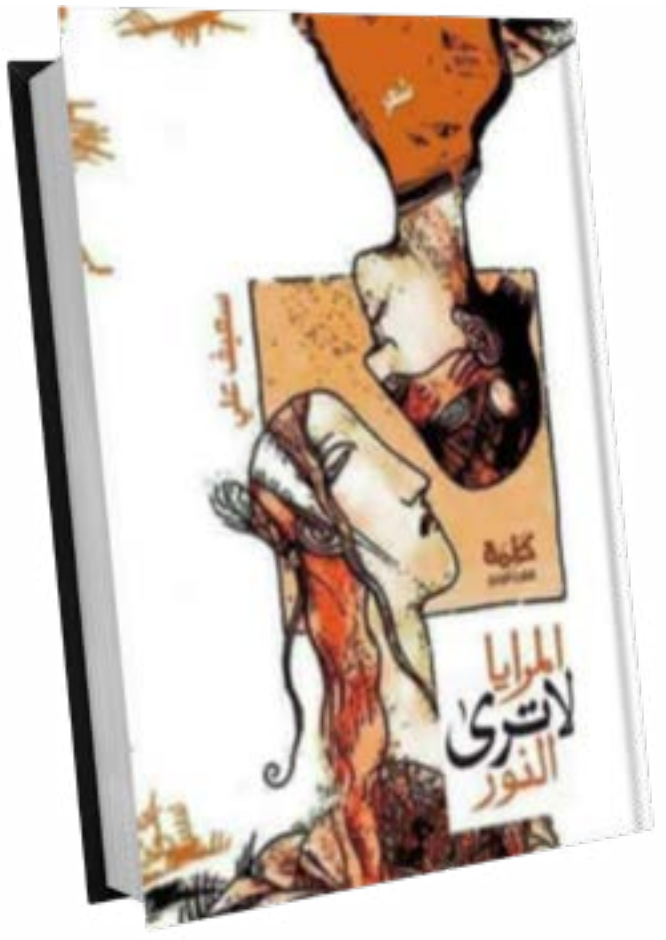

بابُ الّذي لا يُرى : الشّعريُّ مُجرّدًا من الجناس/ الشّعر من وصفٍ إلى وصف

خياراتٌ عديدةٌ يأخذها سعيف عليّ بعين الاعتبار وهو يزاولُ كتابتهُ عن العالم في وجوهه الغامضة والمفضوحة الّتي تتناوبُ في مسارحها المختلفة داخلاً وخارجا شأن اللّغة أيضا وهي تتقاسم معها هذا التّعالق في محنة المعنى يحاول أن يكون.

العتبة الّتي فسحت الإضاءةَ الرّابطة في هذا المؤلَّـف من المدخل، تراهُ ينبئُنا بقضيّته مع الكتابة أو قضيّتنا مع الشّعر لا يقنعُ أبدًا ولا غايةَ لهُ إلاّ أن تتآلف معهُ في سعيِهِ لكتابتنا في إقامتنا الجبريّة تحت طائلة الذّاكرة والتّاريخ أو في سياق التموّجات اللاّنهائيّة الّتي تحدّث عنها موشينيك تلك الّتي تعرّف الشّعر تعريفًا مخصوصا يتبادر من شاعر إلى شاعر عبر أنساق تفكيره فيه وعبر اللّغة إذ تترافد من منحى إلى آخر ومن لعبٍ إلى لعبٍ تجعلهُ رديفًا للتّجدّد في كلّ مرّةٍ، ضربًا من ضروبِ موجّاتٍ غير مكتملة لاتكادُ تكتمل أو تكادُ لا تكمل صياغة هويّة بعينها.

الكتابُ أبوابٌ من تجديفاتٍ تعريفيّة تروي سيرة القوّال

بورتري

سعيف يسردُ حالته على غير عادته في مخطّطاته الأخرى في وصف حضيرة جامدةٍ أو متحرّكةٍ من عالمه الأصمّ المتكلّم ولكنّ هذه المرّة يضعنا إزاء كتابةٍ على الكتابةِ ويختار لها الأبواب» في عفلةٍ من بابٍ موصدٍ –باب النّفريبابُ جارتي والقطط السّوداء-باب على سبيل الفشل في عدّ الأصابع-بابُ سامية-بابُ الموارب.... عناوين لا تتراصفُ بقدر ما تبدي حيرتها حيرتنا في حركة الوصف حركة تجليةِ النصّ في غربته وهو يقول، ثمّ يلخّص جولاته في نهاية المخطوط في تلاخيص قد تمدّنا بما ترسّخ من بيت القصيد من كلّ أبوابه الّتي سبقت، أو قد تعرّي لنا ما غمض مرّةً ومرّات، والمساراتُ تتلوّى بين بلاغةٍ وأخرى تفصحُ عن شيءٍ جديدٍ من حياة الرّاعي وهو يتناظر مع مفرداته في حقولٍ كلاميّةٍ كهذه تبدو هجينةً لكنّ إيقاعها يتعمّمُ من نصٍّ إلى آخر، فالمنشئُ من كتابته القديمةِ إلى اليومِ لا يؤمن بالتّقفيةِ أو بالسّجع هو ينشئُ وينشئُ خافتًا، طلبهُ يحمئُ تردّدَه في عقودٍ واستفهاماتٍ تتلاسنُ في الالتماس من دهشة في الاستغراب، قد تتعجّبُ من شيءٍ وقد تألفُه حينٌ يخفضُ من كلّ منسوبٍ قد يتشابه مع كتابةٍ أخرى. هكذا تتبارى في حيّزه حركةُ مكافحةٌ بينهُ وبينَ ذاتِه تتساءلُ عن جدوى الكتابة، عن جدوى الشّعر عن معنى الهزيمة في انتصارت مشبعةٍ بالوهمِ، من أجلِ ذلك تتخلّق نصوصٌ مبوبّةٌ في الظّاهر لكنّها حركاتٌ على مسرح الورقة تنفتحُ، وتفتحُ ستارتها على معارج ليست لها أبوابٌ، هي تتراسلُ من وحداتٍ تارةً يفيدُ جمعها الخاص وطورًا تنثني على الفرديّة يفيدُ سرّها الجهر، يقولُ» قريبٌ من كلامٍ غامضٍ/ وحولهُ أو جهةَ المغيب/ لا يريدُ ذئبُ الكلامِ إخباري ص6» « قد أعتلي شجرة الصّنوبر الحلبي/ فالمعنى لم يعد يصبح للتّسلّق ص9» « لم أغادر صوت الرّحلة / أمعنتُ قصدًا في الذّاكرة ص13»

منطلقاتٌ كهذه تجبرهُ على اتّخاذ مسافةٍ مع الأنا، الأنا الجمعيّة الشّعريّة وقد ترقرق صوتهُ مع ذاكرته القرائيّة مع آدونيس أو مع الماغوط أو مع وديع سعادة أو مع توتّرات المفارقة

في شعريّة خديم اللّه...مع ما تجدر قراءته من روايات أصبحت مرآته في سياقات الجدل الحافّ وقد تترادف من قريبٍ أو من بعيدٍ حتّى يؤنسنا بتقديره في التّعبئة منها نسقًا حكميًّا يتعالى بمنطقه الذّهنيّ» المجد لكلّ ما يُنسى ويندثر ص31»» الحكمةُ تعيشُ في ثوبِ الأخطاء ص49»» ما أشدُّ قسوة الفرص القليلة ص83»، حينئذٍ كانَ لابدَّ من جدولةٍ خاصّةٍ لكلّ هذه المناخاتِ المنحدرةِ من نيتشه، إلى خطوط التّاوية، إلى هايكو المضايق تلك شرق دائرتنا الزّرقاء، حتّى نتأكّد من ثقافة الرّجل وهو يتفحّص انفعالاتٍ على الهدوء لكنّ صياغتها من استدراكاتٍ في الممرّ تؤلّفُ جناسًا مغايرًا تتوازى معهُ التّعبيرةُ في كلّ محاولةٍ لتشتركَ في «المينيمومْ» من موسيقى مقتضبة حانّة وصادحة» سيزيف حكايةٌ سمجةٌ وبسيطةٌص100» « نحنُ نسمّيك سامية لينجو يوسف من مكيدة البئر ص125» تستمرّ ساعةُ الحائطِ في الكذبِ واللّعبِ ص128».

نسقٌ تتجدّدُ به الحياةُ في تدفّقٍ مغايرٍ من وصفيّاتٍ على جانبٍ تعنى بالخارج من حياةٍ حيّةٍ أو ميّتةٍ يزرعُ فيها الحياةُ ويؤثّثها على وتيرةِ لغةٍ يتزاحمُ فيها الارسال يالارسال وتتلقّفُ استعاراتها من منحوتةٍ من قماشةٍ في الطّريقِ من إبرٍ في المشهديّاتِ المتعاقبةِ، إلى مشهديّاتٍ تبني التزامًا وتشيرُ إلى نضاليّة الكاتب أمام كتابته وهوَ في مصنعهِ الدّاخليّ يعيدُ بناء مسرحهِ التّغويضيّ على الطّريقة الّتي يبقى إزاءها غير راضٍ تمام مثل ما تمليه عليه اللّحظة الشّعريّة في قدرتها على عدم الاكتمال أو انتهاء هوّيتها المنشودة.

خاتمة:

سعيف علي لا يتأخّر كثيرا عن وشمته المخصوصة منذ كتاباته الأولى وقد ترسّمت قدرته على النّثريّة الشّعريّة ملمحا يخصبُ على يديه من تجربةٍ إلى أخرى وهو يماثلنا بنماذج من وقوفه المعاصر المتشابك مع ما يرصدهُ داخل اللّغة وخارجها، يكادُ ينهي نصّه حتّى يبدأهُ من جديد، والفواعل من سير ونظر وتحقيق.

فنون تشكيلية

معرض: «وجوه لتيمات الروح الخفية» للفنانة التشكيلية ألفة بن غزي في رواق «سانت كروا» بنهج جامع الزيتونة

تجليات واعية بخفايا الروح

جلال باباي

بفضل مثابرتها واشتغالها الذي لا ينضب ولا يتوقف مازالت الفنانة التشكيلية ألفة بن غزي تسعى إلى التجديد في لمستها والبحث الجدي لصنع الإضافة المنتظرة حتى ترصد باقتدار مناخات بصمتها الشخصية، وها هي بعد وقفة تأمل تسترجع شتات تراكمات من مشاركات دولية ووطنية ثم الإحتكاك المتواصل بباقي التجارب هنا وهناك لتستجمع من إحساسها وقناعاتها مسارا متجدُدا لرؤيتها الإبداعية وتقيم بالتالي معرضها الشخصي برواق سانت كروا Saint croix المتواجد بنهج جامع الزيتونة بنونس العاصمة وقد اختارت له من العناوين:" سمات لأوجه الروح" وذلك بداية من 12 أكتوبر 2024 حاملا بين طياته مجموعة من اللوحات الحديثة انتجتها الرسامة كإنعكاس لمشاعر الذات البشرية لمكامن الروح وما حوت من ردود فعل وحراك عاطفي مارسته بثقة أنامل الرسامة على بياض القماشة لتستقيم لوحات فنية تعبيرية تلخُص ما نوت ورغبت ألفة بن غزي إبرازه للملاحظين والمتابعين لتجربتها منذ عديد السنوات .

مرافئ

على هامش تكريم الاستاذ عبد المجيد الشرفي بالمغرب

أضواء على الخصوصيّة العلميّة للدّرس الحضاري (1 من2)

بقلم: محمّد الكحلاوي، أستاذ بجامعة قرطاج

ممتاز ومهمّ للغاية ما أقدم عليه يوم الثلاثاء المنصرم مركز الدراسات الثقافية والتاريخية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وشعبة الفلسفة بجامعة الحسن الثاني بن مسيك بالدار البيضاء، المغرب، تكريما للأستاذ عبد المجيد الشرفي الباحث المميّز في مسائل الحضارة وقضايا الفكر العربي الإسلامي، حيث تمّ تنظيم ندوة علمية مرموقة، على امتداد يوم كامل، مثّلت المحاور المطروقة ضمنها لأهميتها وجدّتها اعترافا واحتفاء بالطاقات التونسية الجامعية الخلّاقة، ولعلّها كشفت عن جانب من عمق الروابط العلمية والثقافية والحضارية التي تصل على المستوى الأكاديمي العلمي بين طرفي بلاد الغرب الإسلامي؛ تونس والمغرب.

وقد شاركت في هذه الندوة كفاءات علمية جامعية لامعة، مثل عبد اللطيف فتح الدين مدير المختبر العلمي والمفكّر والمؤرخ عبد الإله بلقزيز ومحمّد بن الشيخ (قسم الفلسفة بالجامعة المغربية)، ومن تونس بسّام الجمل (جامعة صفاقس)، وهو مدير مركز الدراسات الثقافية والتاريخية، إضافة إلى باحثين جامعين مغاربة، قدّموا قراءات منهاجية في دراسات عبد المجيد الشرفي وفي كتاباته ذات الصلة بقضايا الإسلام والحداثة والفكر الإسلامي والتاريخ في ضوء المناهج والنظريات الحداثة، أيضا تمّ التطرّق إلى مسألة ما طرحه ضمن «البداهات الزائفة» وكيف كان أثرها في تعطيل حركة التقدّم والتجديد وتحديث الفكر الإسلامي وتحرّر الإنسان العربي والمسلم، وامّ التطرّق إلى دور الشرفي في إرساء نزعة النقد والمساءلة والبحث العقلاني ومرجعيات الدراسات المقارنة، أثر كلّذلك في تناول قضايا الفكر الإسلامي والتراث وتاريخ المذاهب الدينية في الإسلام والأديان الأخرى...

على هامش هذا الاحتفاء العلمي بطاقة جامعية تونسية مميّزة، في هذا المجال العلمي سنكتفي هنا بإنارة تسعى أن تكون علمية تعريفا بأهمية الدرس الحضاري ونقد متون التراث والفكر الإسلامي من زوايا المناهج والنظريات الحديثة وبحسب روح العصر العلمي والحضاري.

1 - في خصوصية الدّرس الحضاري

لعلّه من المفيد أن نبيّن أهمّ ما يختصّ به الدرس الحضارة المقدّم ضمن أقسام اللغة والآداب والحضارة العربية بالجامعة التونسية، في مستوى المنهج، من جهة انفتاحه على أدوات

عبد المجيد الشرفي

العلوم الإنسانية والفلسفة، أيضا من المهمّ التطرّق إلى مدى اهتمام هذا التخصّص بتحليل النصوص الدالة على أنماط الفكر والتديّن والمعرفة المؤثرة في المجتمع والتاريخ والمشكّلة لمجمل أنساق الثقافة، حيث يكون الاعتماد على أدوات تحليل الخطاب، بحثا في وظائف اللغة وأشكال استعمالها في سبيل تشييد رؤى العالم والحجاج لوجهات نظر وقناعات فكرية وأديولوجية بذاتها، تتصل بالدين أو السياسة أو القيم والأخلاق وتؤثّر في مجرى التاريخ.. حيث تتكوّن في معرض ذلك تكوّنت معالم التخصّص الدقيق داخل سياقات الاختصاصات الكبرى في مجال دراسة اللغات والآداب والعلوم الإنسانية.

ولعلّه تبعا لذلك تتبيّن أنّ طرافة الدرس الحضاري التي هي قائمة، دون تلفيق أو تجميع شكلي، على الوعي المنهجي بضرورة انفتاح العلوم والمعارف على مرجعيات بعضها بعض لدراسة الظواهر الإنسانية والثقافية والمعرفية من زوايا نظر مختلفة، ممّا يجعل الحضاريه بمعنى ما يندرج ضمن تداخل الاختصاصات أو الدّراسات البينية.

لكن ما هي خصوصية المسار الذي نشأ ضمنه إجمالا درس الحضارة بالجامعة التونسية. وهل هو خاصّ بها فعلا أو «بدعة تونسية»، كما ذهب بعض المنتقدين إلى قول ذلك!!!

سأكتفي هنا بالإشارة إلى ملاحظات وإفادات مختزلة، ولكنها ربّما تبدو دالّة ومفيدة، قبل التطرّق إلى نماذج من البحوث والدّراسات المنجزة في هذا السياق بما يرفع اللبس عن أبرز مظاهر الإشكال، ويكشف عن فرادة بحوث الحضارة من ناحية تقنية ومعرفية خالصة.

بدءا يمكن القول إنّ الإشارة إلى أنّ درس مسائل الحضارة ليس بدعة خاصّا بالجامعة التونسية، فرضها أستاذة معيّنون كما قيل سابقا، ولتصبح قطاعا ذا استراتيجيات معيّنة وموجّهة أكاديميّا!

إنّ درس الحضارة، تقليد علمي منهجي وضروري لتكوين طلاب الآداب وتوسيع زادهم المعرفي في اللغات العربية والفرنسية والانقليزية وغيرها، وليس في مجال العربية فقط... فالحضارة تخصّص أكاديمي معرفي، ظهر بدءا في الجامعات الأوروبية منذ فجر القرن التاسع عشر، ويتعلّق مدار اهتمامه بدراسة منطق

طه حسين

التطوّر الذي يحكم نشأة نتاجات العقل البشري في مجال الفكر والعلوم والفنون وأنساق الثقافة ونماذج العمران والتمدّن ومجمل النتاج الفكري الديني أو الاجتماعي، أو السياسي أو الفلسفي... وأيضا في مجالات التنظير الأدبي والجمالي، من جهة كونها أنساقا فكرية وثقافية...

والبحث في الحضارة صار يتخطّى مجال المقاربة التاريخية، إلى التحليل العميق النقدي ذي البعد المعرفي النسقي الابستمي للنصوص والمدونات، وصار على الباحث في الحضارة أن يشتغل على تكوّن المفاهيم وتشكّل المصطلحات بناء النصوص وسياقات دلالتها ة على المعنى والأفكار وعلى ما هو كائن في الواقع، انطلاقا من تحليل ما كتب ووظّفت اللغة لأدائه، عبر جدليات العلاقة الكائنة بينها وبين فعل الإدراك الذي يتجلّى في نتاجات الفكر والوجدان وفي مجالات الحياة وحركة التاريخ... وهنا يتماس البحث في الحضارة مع تاريخ الأفكار وليس بالمعنى التاريخي وإنما بالمعنى الابستمولوجي النظري..

2 - بواكير البحث في مسائل الحضارة وقراءة متون نصوصها الكبرى والمرجعية

وقبل نشأة هذا التخصّص (الحضارة) في الجامعية التونسية في ثوبها الأكاديمي مع نشأة الدولة الوطنية الحديثة، أواخر الخمسينات من القرن المنصرم، ظهرت أبحاث أعلام كبار، تخصّصوا في هذا المجال، مثل السويسري الألماني آدم متز صاحب الأثر الذائع الصيت: «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: عصر النهضة في الإسلام». أيضا ظهرت أعمال ليفي بروفنصال، وهو مؤرّخ وباحث في الحضارة؛ من أشهر كتبه «حضارة العرب في الأندلس». ويعتبر برفنصال كذلك أحد أبرز أساتذة العلم المؤسس للجامعة التونسية الرّاحل أحمد عبد السلام الذي كان بدوره من أوائل بناة الدرس الحضاري في الجامعة التونسية فضلا عن كونه مؤرّخا. وهو ما خطّ لبناته، في افتتاحية العدد الأوّل لمجلة حوليات الجامعة التونسي (1964)، حين دعا على ضرورة إرساء روح النقد والمساءلة لما تراكم من معارف وأنساق فكر مثلت مذاهب بعينها. بل لعلّك تجد روح الحث الحضاري منبثة في أطروحته «المؤرخون التونسيون»، حين حصر المقصد

أحمد عبد السلام

الأسمى لعمله بقوله: «سنحاول أن نستكشف ما يدلّ فيها (كتابات المؤرخين) على تطوّر في التفكير وفي الأسلوب»، وهو ما يعني البحث في ما هو بناء نصّي وشكل كتابة يرتبط بوعي وبشكل لرؤية وإدراك.

لقد نما هناك درس الحضارة في الجامعات الأوروبية وخاصّة في جامعة السربون، فلويس ما سينيون المستشرق الموسوعي الذي تخصّص في فقه اللغة العربية وفي التصوّف الإسلامي كان مدرّسا للحضارة بالسربون، وهو ما ما أكّده لي شخصيّا الأستاذ محمّد الطالبي وهو الذي كان من طلبته في ذاك الزمن؛ أربعينات وخمسينات القرن العشرين)، وكذلك الشأن بالنسبة إلى جاك بيرك ورجيس بلاشير الذي جمع بين التأريخ للأدب بالمعنى المتسع للعبارة وبين مباحث مسائل جمع القرآن والاختلاف بين المفسرين وقضايا العلوم الناشئة حول ذلك، وهي المسمّاة بـ «علوم القرآن» و«التفسير»، وكذلك الشأن بالنسبة على أعمال جورج مارسي المؤرّخ وعالم الحفريات والآثار وأحد أبرز الباحثين في ما صار يصطلح عليه بـ «الفن الإسلامي»..

وفي الفضاء الأكاديمي العربي، يعدّ عميد الأدب العربي طه حسين مؤسّسا بامتياز للدرس الحضاري، فهو الذي أرسى نهج جديدا في قراءة مصادر التاريخ وأحداث الفتنة الكبرى وتدوين عيون الثقافة العربية والإسلامية (الشعر الجاهلي ومصنفات التاريخ وكتب الطبقات) من منطلق نظرة نقدية تاريخية فقه لغوية وعقلانية نظرية، تتمثّل في اعتماد العقلانية الديكارتية منهجا للبحث في الأدب ومصادر التاريخ... كذلك الشأن بالنسبة إلى أمين الخولي ومن قبله محمّد عبده أستاذ طه حسين والشيخ مصطفى عبد لرازق، وهم الذين اجتمعت دعوتهم إلى تجديد بلاغة القرآن وتفسيره، في ضوء تطوّر علوم البيان والفكر ومعارف العصر. وكانت من ثمرات ذلك جهود عائشة عبد الرحمن (بنت شاطئ)، تلميذة أمين الخولي وطه حسين، في دراساتها حول القرآن وقضايا الفكر الإسلامي؛ لبنات مهمّة على منبر الدراسات الإسلامية ومسائل الحضارة. أيضا الجهد الرائد لمحمد أحمد خلف الله تلميذ أمين الخولي في دراسة «الفنّ القصصي في القرآن الكريم» تاريخيا وأسلوبيّا وفي ضوء منطق العقل والعلم.

مسرحية «ماسح الأحذية» : نجاح جماهيري وفني وصرخة فزع من أجل إنقاذ الإنسانية

حافظ الشتيوي

غصت قاعة التياترو بالمشتل مساء السبت 19 أكتوبر 2024 بجمهور غفير تحدى برودة الطقس وغزارة هطول الامطار من أجل مشاهدة العرض الأول لمسرحية « ماسح الأحذية « وهي أول مونودراما للمخرج المتميزة حافظ خليفة وأداء الممثل المهاجر بقطر محمد علي العباسي عن نص أصلي للكاتب العربي الدكتور خالد الجابر ودراماتورجيا بوكثير دوما انتاج جمعية جسور للابداع الفني بقطر.

انطلق العمل بمشهد ماسح للأحذية في أحد انفاق القطارات مديرا ظهره للجمهور غير عابئ بما يدور حوله وكأن الأجواء تنبئ بالنذير وفجأة يقع زلزال كبير وتغلق جميع المنفذ لينطلق ماسح الأحذية في سرد حكايته أو بالأحرى مأساته التي هي مأساة أغلب الشعوب العربية الهاربة من ويلات الحرب لتتطور الحكاية ويمعن الجرح في الإيلام ليتضح أن أن ماسح الأحذية هو أستاذ جامعي فقد عائلته بأكملها في الحرب فهرب من ويلاتها حاملا معه احذيتهم كأغلى ذكرى في حياته ثم يلتقى تحت الأنقاض ببعض الشخصيات المتناقضة في حديثها وتفكيرها وهي تمثل جزء من المجتمع فيخوض معهم حوارا يغوص من خلاله في عمق مأساته ومأساة الإنسانية والاف العائلات التي شردت تحت صمت المجتمع العربي أبدع في صياغة كلماته ومفرداته وتسلسل احداثه الدكتور خالد الجابر الذي قدم نصا حارقا خرقا مطلقا صرخة فزع من أجل انقاذ الإنسانية وعبر ساعة من الزمن لم يترك شاردة ولا واردة إلا وذكرها جاعلا من الحذاء أم المشاكل والحلول على مر التاريخ والأحداث والأزمنة. وصفوة القول حسب

الكاتب « لكل مقام حذاء « و « أنَّ الحِذاءَ سجنٌ للقَدمِ.. فَرَضتْهُ الحضارةُ الراهنةُ والحذاء هو من جِهةٍ أُخرى مثيرٌ للرغبةِ وأداةٌ للسُّلطةِ القاهرةِ «

فعلى مستوى التمثيل كشفت المسرحية عن قدرة رهيبة للممثل محمد علي العباسي في تقمص الأدوار من شخصية ماسح الأحذية المسكين المستكين الثائر المتمرد الحزين الاب الحنون إلى الرجل العسكري الغاضب المتسرع إلى المثقف المنبت إلى الرجل المغترب فالمرأة الاربعينين المطلقة المتحررة

أما على مستوى الإخراج فقد ابهرنا مرة أخرى حافظ خليفة بطريقته الساحرة في جعلنا نغوص في رحلة وجودية مع شخصية ماسح الأحذية والشخصيات الأخرى باعتماده طرق اخراجية متنوعة وعلى قدرة الممثل على التنوع والتحول والتقمص كذلك على مستوى السينوغرافيا الرقمية والانارة وخيال الظل وحتى الأحذية جعل منها شخصيات ناطقة .

قد قام بالدراماتورجيا الكاتب المبدع بوكثير دومة بكثير من الحرفية دون المساس من جوهر النص وقدمت مصممة الأزياء المخصة شكلا جميلا من الملابس والاكسسوارات التي سهلت عملت التنقل من شخصية إلى أخرى وأعطت لبعض الشخصيات أبعادها الحقيقة

وبالنسبة للناحية الرقمية فقد أمنها الفنان نور الجلولي وعلى مستوى الموسيقى ابدعها الموسيقار التونسي المغترب زياد الطرابلسي .

فنون تشكيلية

حيوية المشهد التشكيلي في مؤلف «الطبيعة في الفن» للباحث والأكاديمي خليل قويعة

مهدي غلاّب

كما أكد مؤرخ الفنون والإيقونوغرافي النمساوي البريطاني المعاصر إرنست جوزيف غومبريتش في سلسلة محاضراته حول مآلات الفنون الجميلة بالمعرض الوطني للفنون بواشنطن في منتصف القرن العشرين, فإن موضوع تطور الفنون البصرية ومواكبتها لعصرها مرهون بالإبتعاد عن القوالب الجاهزة وتحقيق التحديات وإستحضار المخاطر والتجاوزات، ذلك أن النجاح المأمول للتجارب الفنية الجديدة مبني على القبول والتقبل والتأثر والتأثير، لأجل خلق أدوار متداولة حينا ومجتمعة في ذات الوقت أحيانا بين الموضوع -سواء كان ماديا، عضويا, فكريا أو رمزيا- والفنان من جهة والموضوع والجمهور من جهة أخرى، وصولا إلى مصالحة الصانع المعلم مع بيئته وتكامله مع معجبيه بإختيار الإلتزام بالمسارات الحيوية التي تفرض نفسها وتؤكد حضورها إنسانيا وكونيا. بهذا ينزاح سمو الوهم الأيقوني التقليدي ويتضح مفعول الوصفة التشكيلية على أرض الواقع وفي ميدان الحياة البشرية، دون إعتبار جاذبيتها التي لا تعدو أن تكون مسألة فارقة متأخرة عن عصرها.

ظهرت بوادر التحول في التوجه البصري منذ إنبلاج فجر التجريد ومع تطور حقل التجريب البصري بالخصوص، غير أن المسار الإنشائي الذي قلد أركانه التشكيلي خليل قويعة معطيات الطبيعة رأى النور لأول مرة في منتصف القرن العشرين (1937) في الكوليج دو فرانس على يد المفكر والكاتب الفرنسي بول فاليري. وفي مقال «أزمة لوحات المحامل» (الفن والثقافة، ماكيلا،1997) للمجادل ك. غريمبيرغ (1994-1909)، إعتبر الأخير أن لوحة المحمل التي تعتبر حصريا من إبتكار الغرب وبالتحديد الشمال الأوروبي الفلمنكي، تعدو مجرد مساحة مسطحة متنقلة، لغايات تزيينية شأنها شأن المنمنمة الفارسية و التحبير الصيني، ما يجعلها تتموقع بعيدا عن العصرنة في نظره.

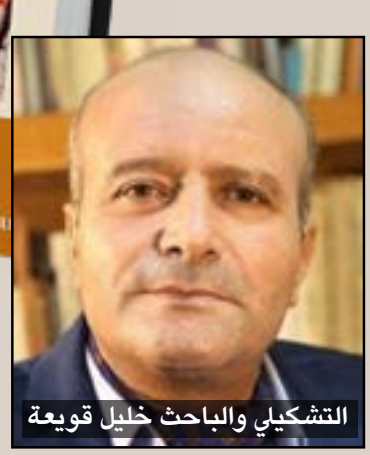
التشكيلي والباحث خليل قويعة

يُحيلنا موضوع التجريب في الممارسة البصرية مرة أخرى إلى مجمل التجارب الإبداعية ذات الطبيعة الإنشائية التطورية المفتوحة على المحيط الداخلي والخارجي التي تُحول العمل الفني من المحلية إلى العالمية وتنقله من الرواق إلى الموقع ومن الصورة إلى المشهد. وهو جوهر المشروع التشكيلي للباحث التونسي خليل قويعة الصادر في مؤلفه الفرنسي «الطبيعة في الفن» (LA NATURE DANS L'ART) عن دار الهارماتان بباريس منتصف 2024.

تتطلع مكونات المبحث إلى حقل عمل مواز للصنعة الجمالية المدهشة بتفاصيلها المعهودة ومخالفة المواد التشكيلية التقليدية المتناولة في الفنون القديمة والحديثة وحتى البعض من الصياغات والوصفات الجمالية المعاصرة. تم ذلك عبر الإهتمام بمسار تشكيلي تطوري مستقل لايلتزم بتحقيب ولا ينتمي لمدرسة أو تيار فني يُعرف بالإنشائية (LA POÏÉTIQUE). ترتكز نقاط إهتمامه على تثمين المكان والكائن بتضمين دوره وإعادة الإعتبار للمقدرات والمقتضيات البشرية والطبيعية الكونية والأركيولوجية لتتحول بذلك نقاط الإهتمام من التشكيل الجمالي الشعري إلى التشكيل الجمالي المعرفي.

تطرح فكرة المشروع كما ورد في المؤلف الذي مثل قبل كل شيء محتوى أطروحة دكتوراه في جامعة تولوز 2 جنوب فرنسا نالها الباحث نهاية العام الدراسي المنصرم (2023) مبحثا متفردا في الجماليات يحمل آفاقا ورؤى منفتحة على الإنسانيات والعلوم بأنواعها بتقاطعات مرجعية معتبرة مع الفلسفة والتاريخ . حيث يقدم الأثر قراءة إنشائية تجمع بين النظر والتنظير بوسائل فلسفية فينومنولوجية طغت فيها المراجع الكانطية العقلانية على التصور الهيغلي الروحي و المراجعات الهندسية الخطية لبراك وبيكاسو على التجريد البنائي الروحي لموندريان وكاندينسكي ومالفيتش، وهي مراجع إستيطيقية تربط الفكر بالفن تؤشر بالخصوص إلى الإهتمام بتوظيف مختلف التيارات والنظريات الإبستمولوجية لا سيما وأن الكاتب درّس الفلسفة بالمعاهد التونسية لسنوات، حيث تميز التناول بعرض تطور الحالة الطبيعية وما تخلقه من صور معنوية ومادية عبر تحاور عناصر ومكونات العمل وتجاور المواد داخل الدائرة البيولوجية. ورد التوجه بهوية نفعية ومن باب مفهومي خادم لعصره، يسطر خصوصية الفضاء المفتوح ويرفع شعار البيئة بداية بالحجر والنبات فالهواء، مرورا بالماء والبحر وصولا إلى الأحياء، وذلك في مقاربة الزائل بالدائم وتثمين الدور الموكول له في باب توازن المحيط العالمي عبر مسار مجدد لقوام شخصية "بلاستيكية" ناشئة تستمد وجودها من تفاعلات وتأثيرات العنصر الطبيعي داخل دائرة المكان (الصخور البحرية بالهوارية شمال شرق تونس نموذجا) وخارج دائرة الزمان (بدون تصنيف أو تحقيب أو مقياس زمني محدد) كتركيبة حية(وية) تتشكل من الحي من جهة (النبات والحشرات) والطبيعي الحيوي من جهة أخرى (الصخر والبحر) بتداخل عديد العناصر المساهمة في خلق مناخات جمالية نابضة بالحياة، تنشأ وتتطور من فهم تحولاته البيولوجية و الجيولوجية.

تتشكل تجليات الفكرة والمشروع عبر مختلف العناصر المنسجمة: اللون، الحجم، الشكل والنوع والثنائيات المتداخلة: الحركة والسكون، التطور والتراجع، الإنفتاح والإنغلاق، الجسم والجسد، الصورة والشكل. بمثابة أدوات داخل ورشة كبيرة صانعة للفعل والتغيير تتفاعل فيما بينها ، تولد الحركة عبر إعادة إنتاج الطبيعة في خضم الإشكالات البنائية العضوية والمعنوية، وداخل جدلية صراع بين الصورة والمادة، الموت والحياة، الفوضى والنظام، العمودي والأفقي، الماء والهواء، التربة والصخر ، النبتة والحشرة، كعناصر تستمد حضورها من تجربة حيوية تنتعش من المعطى البيولوجي تارة والجيولوجي طورا عبر تأملات وإضافات بشرية تحيل مباشرة إلى الحقل الجمالي.

هذا ما تناوله المُؤَلف البحثي الذي إختار فيه صاحبه

صخرة رأس الأسد بالهوارية (الجزء الأول)

فنون تشكيلية

الإبتعاد عن النمط الأيقوني بإعتماد إنشائية الصورة والمادة، ما يجعلنا نركز نقاط الإهتمام على جزأين رئيسيين من مجموع ثلاثة، وذلك بعد تضمين قراءة تقديمية نوعية شاملة نظرا لحجم المُؤَلَّف الذي قارب 300 صفحة.

-مقاربة الطبيعة والإبداع: من الصورة إلى المادة, الصخور البحرية بالهوارية (الجزء الأول). ص97-27

يطرح تمرين إنشائية الطبيعة البحرية بأقصى إصبع الوطن القبلي (الهوارية) بالشمال الشرقي التونسي في الجزأ الأول من العمل، مسارا متحررا من إطار الصورة التقليدية الميتة فينطلق منها بإختيار إطار العمل والموقع وتمييز الأشكال من الخطوط والبحث عن الإشكالية لطرحها في الواقع أي التحول بالعمل من مشروع فكرة مباشرة بإعتماد دراسة تجريبية معرفية تنطلق من السيرورة الطبيعية البيولوجية وصولا إلى الأبعاد البيئية التي يحول فيها الفنان الأشياء المتجاورة والأحياء المتداخلة إلى عناصر تشكيلية نابضة بالحياة بمجرد عرضها، نظرا لتوليد الشخصية المفهومية التي تخول المرور لمشاهدات وقراءات مفتوحة للمظاهر والظواهر المتفاعلة فيما بينها، فيتحول بذلك التمرين التشكيلي من موقع إلى واقع يحتمل تداخل الألوان بين الأزرق (البحر) والأخضر(الشجر) والفاقع (الصخر) والقاتم (المغار) والفاتح (الأفق)، ويقفز الفعل التشكيلي من دراسة الموقع الجغرافي إلى الواقع الحياتي المتجدد كل يوم.

وبإخراج الأشكال والأحجام من صخرة رأس الأسد إلى المغاور والتجاويف المتعددة يتحول الطرف إلى جوهر والشيء إلى موضوع يعمل فيه الفنان جاهدا على تأسيس الهوية الفنية المطلوبة. غير أن مرحلة إعادة إنطلاق الخطوط الملونة المنبثقة من المساحات العمودية والأفقية إلى أشعة تتصارع مع خطوط الأفق وإعادة تأسيس دوائر شبكة العنكبوت داخل النتوءات والحفر الصخرية يعيد مشروع العمل مجددا إلى طور الفكرة. وكلها محطات تعيد إنتاج وقراءة الطبيعة، وتطرح في ذات الوقت ماهية الفعل الجمالي. ما يستدعي إعادة التساؤل عن موقع الفن البصري ومفهومه والبحث عن مقاربات عقلية مواكبة لعصرها.

غير أن غياب التثمين الأركيولوجي ولو بإشارات تمهيدية لموقع بحري متوسطي إستراتيجي مركزي قطبي مثل الهوارية تعاقبت عليه الحضارات منذ تاريخ العالم المصري واليوناني العتيق إلى تأسيس قرطاجة الفينيقية وبعد ذلك تواتر الأحداث المتوسطية الرومانية القروسطية و النهضوية إلى حدود الحربين العظميين يجعلنا نتساءل عن المغزى والإختيار. هل تغييب المعطى الأركيولوجي عملية مقصودة من الكاتب ؟ وهل كل مشروع بحثي تشكيلي زائل لا يتطلب الإشارة للحضور السابق لا سيما وأن الورشة (ميدان العمل) مشتركة ؟ هل الحجج والمراجعات الفنية والفلسفية وحدها كافية لإعطاء الشرعية للمشروع الفني المراد تصديره وتقديره دون الإلمام بالبعد التاريخي الأركيولوجي؟

-مقاربة الطبيعة والإبداع من المادة إلى الصورة: إجراء، (الجزء الثاني). ص 207-99

لعل إلتزام المشروع البصري برمته في «الطبيعة في الفن» بالنظام الإيكولوجي مرده إصدار هوية جديدة للطرح الإستطيقي المتكرر. تم ذلك بنظرة أخرى في طبيعة العلاقة بين الحي والجماد، عبر تحويل المعطى التقني(اللوحة) إلى معطى طبيعي (النبتة)، بإعتماد المنهج الإنشائي، لتصبح اللوحة اللونية الصباغية عرضا ثقافيا حاملا لرسالة توعوية بالمسألة البيئية التي تطرح غالبا في الفن المعاصر على غرار أعمال سميسثون في الرصيف اللولبي (1970) و المجرية دينيس في «حقل القمح» (1982) التي حولت مصب القاذورات بنيويورك على بعد أمتار من مركز التجارة العاملية إلى حقل حبوب شاسع أعطى الإنطباع بأن مركز المدينة المليونية صار منطقة زرع وحصاد وفلاحة ريفية. يستلهم الكاتب تدخلاته في تجسيد المسار الطبيعي من مجمل المقتضيات

عمل «إجراء» يلخص التطور من الواقعية إلى الفنية بعد إتمام المسار الإنشائي الحيوي (الطبيعي).

المجتمعية والمعرفية المطروحة. إذ أن الفن نشأ إستجابة لإشكاليات محددة. غير أن مصير الخيار الفني وتوجهاته يأتي حسب المشروع المحدد، يقول الكاتب:»النبات يقود العملية الفنية، لكن لا يحدد وجهتها»، ص 124.

في هذا الجزء من الكتاب تتضح بالخصوص أهمية إستثمار الغطاء النباتي واللافقريات في بناء صياغة فنية متكاملة تنطلق من إدراك المحيط الطبيعي بالتحاور مع العناصر الترابية والعلامات الزراعية الحية التي تتفاعل فيما بينها فتبدأ في تأسيس المشروع التشكيلي عبر الحركة والحياة ما يؤدي إلى تغييرات في الحجم واللون والشكل. يتجاوز النبات المساحة المخولة له النمو فيها على جدار اللوحة الأم فيتحول ومحصوله إلى طعام بيولوجي نافع ويغادر النمل المساحة التشكيلية تاركا آثارا تشكل تحولا جذريا يمكن إستنتاجه على الخشبة الأم. مكنت هذه المحطة الفنية الإشكالية من الوصول إلى معطيات، مفتاحية، نذكر منها بالخصوص:

النقلة النوعية لخلاصة العمل من الهيئة الخارجية(الحديقة) إلى الهيئة الداخلية (المعرض).

المرور المرحلي للعمل (بقايا النبات والحشرات) من نطاق الورشة (بحث) إلى نطاق النظر (ملاحظة).

المسار الاستثنائي الملحوظ الذي يوفره المشروع الإنشائي لبرنامج العمل من التمثيل (الأوراق، الأغصان، النمل، التراب، الماء) إلى إعادة التمثيل (المفهوم الثقافي للطبيعة، الحس البيئي، الاستهلاك، الصحة).

التطور الجوهري للعمل من مشروع زراعي إلى مشروع جمالي أو تحول المشهد الواقعي الروتيني العام المفتوح إلى صورة فنية محددة التفاصيل تتجه نحو الإجابة عن عدد من إشكالات وأزمات العصر.

غير أن تحول العمل في نهاية المطاف من حضور صوري إلى حضور تجريدي وهي محصلة النتيجة النهائية التي تعود بنا إلى المربع الذي إنطلقنا منه أي الفكرة، التأمل والسؤال، وهو ما إستطعنا رصده من أفكار الكتاب. ورغم أن العمل المطروح يحتاج إلى نتيجة مثل حاجته إلى مفهوم فإن نهايته تبدو غير ممكنة وبدايته لا تنتهي لاسيما وأن طبيعته الإستثنائية تطرح أسئلة عميقة وتسيل حبرا كثيرا وتنتج نصوصا إنشائية معتبرة. وهي بلا شك نتاجات جوهرية ذات طبيعة بروتوكولية لمابعد الورشة تنبني على جدلية الفعل وردة الفعل مستجيبة للخطاب الفكري والفلسفي لمرحلة ما بعد الجماليات.

بقي فقط في هذا الجزء من الكتاب أن نشير إلى أهمية إدماج الدور الرائد والمكمل للفلسفة العربية الإسلامية، سواء تعلق الأمر بالفيزيائيين الأوائل على غرار طاليس الملطي الفينيقي الذي درس تركيبة الأجسام والحركة والزمن ورؤية مسار الكون منذ القرن السابع قبل الميلاد أو بالمسألة المعرفية العقلانية التي تعود للعصر الذهبي للحضارة العربية لا سيما مع العلامة ابن رشد وابن سينا. وهو عنصر كان بالإمكان إدماجه في جزء من الأجزاء. فنتساءل عن حضوره في ضوء غيابه خاصة مع تعدد المراجع الفلسفية والصورية الغربية مرجعا ونظرية. ومن المؤكد أن السيرورة الفكرية التاريخية غير منقطعة عن بعضها بحيث أن أطرافها تتكامل وجغرافيتها تشكل الكون وإشكاليتها الجمالية الإنشائية واحدة. والمعروف أن أبحاث المعارف الشرقية مثلت شرارة إمتداد الوعي الكوني الحالي ومهدت لإمتداد ودوام المعارف والثقافات الأخرى .